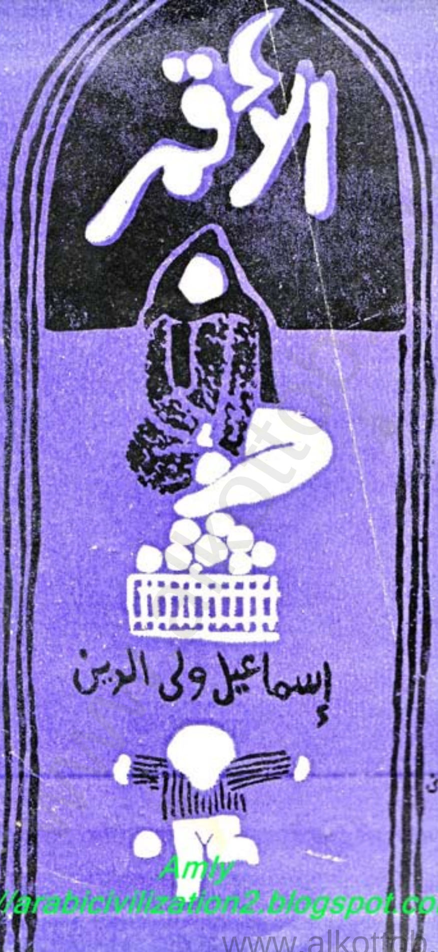
الأقمر



إسماعيل ولي الدين

كتابات معاصرة

ص . ب ١٢٦١ القاهرة

تطلب من

- دار المعارف ووكلاءها فى مصر
- مكتبات القومية للتوزيع

القاهرة

- مكتبة مدبولى بميدان وشارع طلعت حرب
- دار حراء ٢٣ شارع شريف
- مكتبة الأنجلو المصرية شارع طلعت حرب
- مكتبة دار العلم ٤٠ شارع خيرت بالمالية
- عالم الكتب ٣٨ شارع عبد الخالق ثروت

الاسكندرية

- مكتبة علاء الدين شارع صفية زغلول
- مكتبة الشناوى شارع صفية زغلول
- إبراهيم حسين بجوار اتيفيوس محطة الرمل

التوزيع الخارجى

القومية للتوزيع

مكتبة الانجلو المصرية

مكتبة العرب ٢٨ شارع الفجالة بالقاهرة

كتابات معاصرة
Oeuvres Contemporaines

الأقمر

اسماعيل ولي الدين

الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ ١٩٧٢

غلاف . . . . حلمي التوني
رسوم . . . . محمد حجي
إشراف . . . . صبحي الشاروني

دار الطباعة الحديثة ميدان أحمد ماهر
إيداع رقم ٥٩٨٩ / ١٧٩١

شارك فى كتابات معاصرة

* الفريد فرج ، ثروت أباظة ، عبد الحميد جوده السحار ، محمود تيمور ، نجيب محفوظ ، د. نعيم عطية ، يحيى حقى ، يوسف الشارونى ، غالى شكرى ، أمين يوسف غراب ، د. عبد الغفار مكاوى ، لطفى الخولى ، محمد عبد الحليم عبد الله ، يوسف ادريس ، يعقوب الشارونى ، شفيق مقار ، جلال العشرى ، سعد الدين وهبه ، عبد المنعم سليم ، فتحى رضوان ، محمود دياب ، اسماعيل ولى الدين ، عزت الأمير ، صلاح طنطاوى ، عادل غربال ، رجاء النقاش ، إقبال بركة ، محمد الحديدى ، بكر درويش ، صلاح عبد الكريم ، زهدى ، مصطفى حسين ، أحمد مصطفى ، جورج البهجورى ، حلمى التونى ، محمـــد حجى ، يوسف فرنسيس ، كمال الملاخ ، فاروق شحـــاته ، كمال الجويلى ، صبحى الشارونى .

للمؤلف :

١ ــ بقع فى الشمس مجموعة قصص ١٩٦٨ نفــد

٢ ــ الطيور الشاحبة رواية قصيرة ١٩٦٩ نفــد

٣ ــ حمــام الملاطيلى روايه ١٩٧١ كتابات معاصرة

(١)

تعريشة من الخشب ، حجرة كالحق متربة ، على جدرا٠
كف مرسومة ملونة بالطين والزعفران ، حجاب معلق له شراشيب من النرتر والقواقع . زيطة وصخب وطرقعة صاجات ونغمات رتيبة. حريق لأعشاب وقوالح ، رجل يغنى للنبى له صوت كصهيل الحصان مزمار بلدى ، عيون ضيقة سارحة فى ملكوت الله . قلب يشوى على نار هادئة . عيون مممصة تأكل الفحم ، لذة جنسية شرهة وضـــوء بنفسجى دامع وصرخات متباعدة على المسافرين والغائبين .

وفجأة يرن الصمت ، ويقع الجميع ، ويرى فى العلو على حائط غير مرتفع أحذيةقديمة ، يضمها رجل يسكن فىالربع ، كان ينوى إصلاحها وبيعها . . ولكن يفوت الزمن ولا يفعل شيئا . .

وتظهر عيون طفلة خلال الزحام ، عيون ليست خائفة ولكنها شقية وتزعق أمها فيها :

« ياما يله ، رجعت بدرى ليه ؟ .

— جعت .

وتتحرك الطفلة فى الطرقة المظلمة ، على الجانبين أبواب مغلقة ، يظهر من زجاجها العلوى بصيص من نور . وتنزل الطفلة على الدرج تتابعها أمها وهى تسدل على رأسها طرحة سوداء .

فى الشارع المبلط بالاحجار السوداء ، تتجه المرأة ناحية أقفاص جريد ممتلئة بالبرتقال بأنواعه الثلاثة ويفط صغيرة . وراء الاقفاص يجلس رجل عجوز يحرسها ، تنادى المرأة على البنت :

— ماذا تريدين ؟ .

. . صمت . . عيون تجفل سارحة فى ملكوت الله

— اذهبى واشترى بقرشين جبنه وأربعة أرغفة .

ثم تجلس المرأة على أحد الاقفاص المقلوبة الفارغة ، يحاول الرجل العجوز القيام من على الكرسى القش . . تمنعه المرأة .

لقد ذهبت تتفرج على زار أخيها الذى اصطنعه لكى يسترد النقطة من البخور ومن صخب النسوة والمأبونين . ولكن البنت جاءت تقطع لذتها فى الفرجة والعبث مع النسوة والضحك والفزع والرقص كلما دار الطبل وزغردت الصاجات . .

تجلس وراء الأقفاص مكان الرجل الذى يغادر المكان .. تراقب القادمين والرائحين فى الشارع المزدحم، والقهوة المطلة على الشارع والتى تحتل ناصية كبيرة . . يبعدها عن « الأقمر » حارة ضيقة ممتلئة بقدور المخللات وزكائب وأقفاص الزيتون الطازج ورائحة الجلة المحترقة فى تسبيخ النحاس .

الأقمر يحتل عظمة المكان . . ولدت هنا ، عاشت هنا ، تزوجت ثلاث مرات ، هجرها رجلان ومات الثالث وأنجبت سبعة أطفال أكبرهم يعمل مع أخيها فى الموالد، وآخرهم طفل لا يزيد ارتفاعه عن النصف متر ، ولكنه كثير التغيب عن البيت . كل يوم تذهب إلى قسم مختلف لاستلامه، دائم التجوال ، يركب أى مواصلة إلى أى منطقة ..

عيون رائعة ، وجه سمح بالرغم من الأتربة إلى يحملها .

أحب الأطفال إلى قلبها وأشقاهم ، أصغر من أن يعمل ، يحمل خيال الدنيا فى رأسه ، لا تستطيع أن تضربه ، يعود من القسم مذهولا، ينام كل ليلة فى قسم مختلف حتى عرفه كل العسكر فى الأقسام القريبة.

عندما تسأله لا يقول شيئا .. سوى أنى أردت أن أغير وجهتى .. فركبت الترام ولم أدر إلا وأنا فى قسم الأزبكية أو قسم الاميرية .

وتراقب « بسيمة » رواد مقهى « الدنف » بعيون مفتوحة .. أول الرواد وأمرحهم وأحبهم إلى قلبها . . « كمال » ابن البلبيسى أغنى أغنياء الحى . عنده مصنع ملبوسات فى الجوانيه وبيتان بجانب السلحدار ، إبنته الأولى تزوجت من ضابط فى الجيش وأسكنها أبوها فى عمارة

عالية فى العباسية .. « كمال » أغرب اخوته . . ثانى الأخوة فى الترتيب كان ينجح بسهولة فى الدراسة ولكنه استمر أربع سنوات فى التوجيهية ، يرسب كل سنة بالرغم من مجموعة المدرسين الذين يأتون له . . له أخ أصغر منه يدعى « محمود » لم يستمر فى الدراسة ولكنه دخل المصنع من صغره حتى أصبح له شأن كبير فيه .

لا يجلس (كمال) مع الشبان الذين فى سنه ولكنه يجلس دائماً مع الرجال الكبار الذين يحبونه ، ويشركونه فى حديثهم ومشاكلهم ومقايضاتهم فى بيع الحشيش أو تجارة النحاس المشهورة فى هذا الحى .

يمتاز كمال بطول اللسان وميله الدائم للشجار والعصبية ولا يخلوا من الطيش والنزق ولا يمر أسبوع إلا وتدق خناقة ويكون فتاها الأول . ولكنه مع ذلك محبوب ومهاب من رواد المقهى وسكان المنطقة . . .

ثم جاء « فتوح » سائق التاكسى فى الليل .. تنادية « بسيمه » أحيانا ضاحكة « فتوش » يحب الأكل ، يحب النساء ، يحب المخدرات ، يحب الفلوس .. يعمل طول الليل فى سبيل أن يعمل ذات يوم قريب على تاكسى يملكه ..

وجاءت بقية الشلة ، فكرى الترجى الذى لا ينام إلا والتعميرة داخل رأسه ، « جابر » الذى يعمل فى تجارة الحشيش ، ويشاركه « كمال » بخمسة وعشرين جنيها سرقها من أبيه يوما — ولم يستطع أن يفعل الأب شيئاً خوفا من غضب الابن الغضوب ..

وتوالت الشلة ..

ـــ يا بسيمه .. هل تأتين وتشربين الشاى معنا؟.

ـــ عندما يأتى الليل الغامق .. سأترك مكانى وراء البرتقال .. وسأجلس بجانبكم . ولما سكن الشارع من المارة .. تهادت « بسيمة » فى جلبابها الأسود ، تركت ابنتها تحرس الأقفاص لتجلس مع الشلة.. تعود السكان وتعود الأصدقاء والجيران منها الجلوس مع شلة الشباب والفتيان (وذهب العيب مع انقضاء الأيام)

ـــ لا أحب الرجال الكبار ، عقلهم انتهى ، كل همهم أكل ونومة شهية ولا أمل فيهم .

ـــ ألا تغنى شيئاً « يا بسيمه » ..

يضحك « فتوح » الذى كان قد أوقف تاكسيه بجانب سور الأقمر فى لحظة هدنة أو استراحة من العمل ربما يدخن النرجيلة الخاصة به أو بعد تناوله عشاءه المفضل زبده بقرى وعيش فينو .

ـــ ألا تذبحون فى العيد يافتوح ؟.

وتضحك العيون وتزغرد الشفاه على بخل فتوح ، ومعرفتهم الوثيقة بمدى حرصه على وضع القرش على القرش حتى يتمكن من شراء التاكسى المرغوب ..

ـــ البنت أحلام مرت الليله وغمزت بعينيها ـــ ولكن لم أستطع أن أتحرك من مكانى..

وتقول بسيمه :

— ماذا تريد هذه البنت ياكال يا بلبيسى .. ألم يخطبوها أمس تاجر غنى له دكان تحت الربع يبيع فيه غذاء المواشى ..

— مازالت تقول له .. انت حبى .. روحى وجسدى لك (قال فتوح وهو يمثل بيده وصدره)

وتقول بسيمه :

— هذا كلام أطفال .. لما لا تنجح فى الأول ثم تفكر فى الحب .. يا خوفى على الاولاد الذين لا يعرفون قيمـــة القرش .. لما لا تعمـــل فى المصنع مثل أخيك الأصغر .. وتترك الدراسة التى ليس لها آخر . وتقبض قروش عديدة مثل أخيك .

ويرد فتوح على بسيمه :

— والنصف قرش زاد ثمنه فى ظل الحكومة الجديدة .. أصبح سعره ثلاثة جنيهات .. والفباره الاصلى غير موجودة .

- والموجود مغشوش ..

ويربط على الجلسة المستريحة رواد جدد .. وتغادر بسيمه الناصية لتوارى البرتقال فى أقفاص الجريد ، وتزعق على ابنتها ، ألا تلبس الهدمتين اللى جابتها مرة ثانية فرق بعضهما .

ويأتى خليل النص ، .. نشال الحى المشهور ويجلس معهم . نحيف ، وجهه معروق عظمتا الخدان تظهران بوضوح ، عدة حبيبات حول فمه تبالغ فى الإساءة إلى الوجه القبيح ..

— ماذا فعلت اليوم يا خليل .

وينادى كمال على صبى القهوة ، ليشرب الجميع « شاى خمسينة » ورى ومعسل ...

وتصعد بسيمة إلى حجرتها بالربع بعد تغطية الأقفاص بالخيش السميك ، وبعد تحية الشلة .. وتنفض الشلة تدريجيا .

فتوح يأخذ تاكسيه متجها إلى الحسين ليلبي طلبات زبائن آخر الليل ومومسات شارع النيل ، والذى لا يشبع من رواية الحكايات عنهن وعن زبائنهن الذين يصطادونهن فى غفلة من بوليس الشاطىء ...

ولا يبقى وراء النضد المستطيل وعلى الكراسى القش سوى كمال البلبيسى وخليل الفص الذى يحكى له عن مغامراته فى سينما الكوزمو حيث يصادق الخادمات ومنهن يعرف أسرار بيوت الساده ولو أنه للآن لم يبدأ فى تغيير عمله واستبداله بوظيفة « الهجام » .

ويقول الفص عرفت مؤخراً فى الحفله الصباحية فتاة تعمل عند سفير ، تعمل عنده منذ سنتين .. الفتاة ليست جميلة ولكنها طيبة وبسيطة ، دعتنى أكثر من مرة لزيارة بيت أسيادها على سبيل أنى قريب لها أو أخ لها من البلد الذين أحضروها منها .

وينادى كمال على القهوجى : النار بردت ، والمعسل شطب

• • •

طلع النهار .. غادر « فتوح » الدار الموجودة خلف الاقمر ، دار أرضيتها موحلة ، جدرانها مبقعة بالرطوبة والعفن ، الدار كبـــيرة تضم عديداً من الحجرات يسكنها الاهالى . والعديد من الحجرات مقفلة تسكنها الخردة ويستخدمها تجار الحى فى تخزين بضائعهم ، كما يوجد فى الفناء عديد من عربات اليد المرفوعة ، وقليل من الطماطم المفعصة ، وبواقى قشر البصل والثوم . يسكن فتوح مع أمه وأبيه وأخته نظيره وأخيه الذى يصغره بعدة سنوات فى إحدى الحجرات فى الدهليز الأخير . دورة مياه للجميع ، لا دش ولا أدوات للاستحمام سوى تسخين الماء فى صفيحة والاستحمام فى الحجرات الخاصة .

خرج « فتـــوح » فى بداية اليوم يرتدى أوفرول إلى طريق الدراسة . إلى مصنع الصلب حيث يعمل هناك ميكانيكى حتى الساعة الثانية ظهراً وبعدها يسوق التاكسى .. يخبئ المكسب عند صديق له يعمل فى تجارة العملة الصعبة فى خان الخليلى ، يخاف أن تحصى أمه عليه مكسبه ، أو يأخذ أبوه ماله لتجهيز أخته « نظيره » .

خرج فتوح وأثر السير باد عليه بسبب رجوعه قرب الفجر بعد إعادته التاكسى لصاحبه ليعمل عليه نهاراً .. لم ينس قبل مغادرته المنطقة أن يمر على البقالة الوحيدة الموجودة .

طلع النهار .. استيقظت بسيمه التى كانت تسكن احدى حجرات الربع الضخم الذى يعلو مقهى « الدنف » ، ودكان لبيع الشعـــير

والعدس ، ودكان لبيع مستلزمات رمضان والعيد .

قامت بسيمه، مسحت، وجهها بقليل من الماء ، وزغدت ابنتها فاطمة التي تعمل فى المشغل وأولادها الآخرين الذين يعملون جميعا فى إحدى ورش الخردة . ولم يستيقظ ابنها الاكبر الذى يعمل مع أخيها . فقد رجع مع آذان الفجر . ولم يعد بالطبع أصغر أولادها وأحبهم إلى قلبها .. عفريت أو شيطان هكذا خلقه الله فإنه يبيت دائماً فى أحد الاقسام ويعود دومافى الصباح عندما تتوسط الشمس كبد السماء . يعود حليق الرأس جائعاً..حافياً ، يشده من يده عسكرى اسود الملابس ، وكل مرة اثنين كيلو برتقال للعسكرى الذى يرضى أن يوصله إلى مقره عند بسيمة أمام الأقفاص .

وتزعق بسيمة غاضبة على الأولاد الذين يغطون فى النوم.. وعلى فاطمة بالأخص التى ما زالت تلبس « هدمتين » فوق بعضهما بالرغم من تنبيه أمها عليها وبأنه لا يوجد ســوى هاتين الهدمتين وأنهما ستبليان مبكراً عن موعدها .

نشرت الشمس بقعها على أرضية الشارع .. وخرج الرجال والنساء تتوسطهم بسيمه فى طريقها إلى سوق روض الفرج لتتسوق وليفتح الله عليها بنعمته وبالقناعة «كلنا زاهدون فى الحياة وكلنا راغبون فى جنة الخلد .. يا أعظم الأئمة راعنا بعطفك واشملنا بحنانك » .

تتحرك بسيمه أمامها فاطمة وأولادها الاخرين ، بدون إفطار ، الجميـع سيكسب لقمته بعرق جبينه أو بقوة ساعده أو بحركة عضلات أرجله .

وتبتعد بسيمه فى خطواتها المتعجلة ناحيه أتوبيس الحسين، ستزور الحسين من الخارج، ستقرأ الفاتحة على ابن بنت النبى ، ستترحم عليه ، ستذكر مقتله فى كربلاء ، واليوم الأسود الذى قتله فيه يزيد بن معاويه ، إنها تحفظ قصته ، إنها سمعت الكثير من أمها ومن أبيها حارس أقفاص الجريد والبرتقال .

وعندما وضحت الشمس واتسع الدفء ، استيقظ « خليل الفص » معافى نشطا، لم يدركه السأم ولا التعب من طول السهر . خرج إلى مقهى الدنف ، يفتتح المقهى ، الصباح به رطوبه محببة ، وكوب الشاى الغامق أجمل وأشهى ما يسلك به أوتار الرقبة . ينضم اليه بعد قليل معاوناه ليصبح الجميع ثلاثة . الدنف الذى يفتتح المقهى فى الصباح ، يغمز بعينيه ، يسأل عن أعمال اليوم ومدى مغامراتهم الصباحية ووعدهم القديم له ، فى يوم المكسب العظيم . سيشترون له جلبابا مقلما وصديريا بسبع زراير صدفية .

خليل الفص يقول : القانون لا يحمى المغفلين ، يبتسم المعاونان فى خوف وحذر . يواصل خليل الحديث: انتهت موضة القماش الميلد ، تقول للزبون فتح واتفرج واشترى . . والاسورة النحاس موضتها انكشفت ، ولكن لا يوجد صنعة أفضل منها . ويخرج من جيبه اسورة نحاس يقدر ثمنها بسبعة قروش، ثم طلاؤها بماء الذهب

ــ اللص لمعها ودمغها بخمسة وعشرين قرشا، دمغة كاذبة، وجودها، حروف زائفة ولكن من متطلبات السوق .

ويضحك المعاونان ، الفتى الأسمر لا يزيد عمره عن العشرين ،

سيعمل اليوم لأول مرة فى وظيفة (القانونجى) أى فى مقدمة الفرقة ـ والثانى المريض يصلح جيدا لوظيفة (الدقيق) تثبيت كلام القانونجى.

ويقول الفص :

ـ أما أنا.. فقد عجزت وشخت ولا أصلح إلا فى وظيفة الفرجه.

شربوا الشاى وقام الفص ووراءه الفتى الأسمر والفتى المريض فى طريقهم لاصطياد الزبون أرذ الليفة، كما يقول الفص..تتمنى إنساناً عنده جشع عظيم فى عينيه ، وغباء شديد داخل صدغه، حتى نستطيع أن نوفى بوعدنا للدنف . .

تبتسم العيون البراقة ، تنظر نظرات سريعة ناحية الأقفاص التى مازالت يغطيها الخيش وخطوط الدوبار ، والأجزخانه الجديدة لها يافطة عظيمة من الرخام والبلاستيك وما زالت مقفولة .

ويختط الفص قائد المجموعة خطا بعيداً عن الموسكى ، يقترب فى خطواته ناحية سوق الليمون ثم مرجوش ، يتفاءل بأنه يركب الترام من المحطة أمام جامع الشعرانى .

فى مرورهم يحيون عم جوده صاحب حمام مرجوش الذى يجلس أمام اليافطة المدهونة ، بجانبه المناشف وورق الصباح .

وتتدرج الشمس فى الظهور ، تبلغ أشعتها كل منفذ ، كل جدار أملس ، كل ثقب . تدخل حجرة بسيمه ، تكشف عن دولاب خشبى مدهون باق من جهازها الأخير، وسرير سفرى مدهون بالأخضر ومرتبة سلوه ينام عليها الأولاد الذين لا يجدون مكانا بجانبها ،

الطشت مركون بجانب الحائط ، وأرفف فى العلو عليها صورة الريس وصورة لزوجها الأخير وخلخال رصاص ، وزهرية فخار بها ورود صناعية ، ومرآة مشطوف أحد زواياها .

وترى الشمس أشعتها على حجرة « كال » الخاصة والتى لا تبعد كثيراً عن الربع الذى به أربعون حجرة تستأجر بسيمة إحداها .

يستيقظ كال فى حجرته الخـــاصة التى يبدو عليها النعيم ، أشعة الشمس تغمر أنفه ، أهم مايميز وجهه وشفتيه الرقيقتين النحيفتين وعينيه الضيقتين وحاجبيه الرقيقين ، هناك شق قديم فى الجبهة من تأثير مطواه .

فتحت أمه - التى دللته - خصاص النافذة ، وتركته بواجة الشمس،

— يا كال أليس هناك مدرسة اليوم؟. انك تغط فى النوم ثم ترسب ولا يبقى أمامك سوى الجندية ، أخوك الأصغر يعمل مع أبيه فى المصنع ، وأنت ترفض عمل المصنع ولا تذهب إلى المدرسة ، وتأخذ مصروفاً لا يأخذه رجل معه شهادة كبيرة .. ثم « الله يخرب بيتك » سيضحك أبوك علينا ، سيغضب جدك منا إذا رسبت هذه السنة .

يحرك كال قدميه فى الهواء . قدمان نحيفتان سمراوتان، لا يستطيع التحرك ، تقف الأم الممتلئة الصغيرة السن ، تشاهد نومته . لماذا تحب هذا الشق .. الذى يعود أو لا يعود ، أحيانا لا يعود ، ينـــام عند أصدقائه، تسمع عن شجاره فى الشارع العريض ، أحياناً يأتى الدنف صاحب المقهى يطلب منها دفع مصاريف تخريب قهوته الحقيرة وتدفع كل شىء يطلب منها فى سبيل ألا يعرف والده وجده الذى يحبه أكثر مما

تحبه ، والذى ساعد فى تدليلة ،يأخذه كل سنة إلى الاسكندرية ، يعطيه مصروفا بجانب المصروف الذى يأخذه منها، مصروف لا يعلم به أحد سواها . وكال يبعثر نقوده أولا باول.بجانب أنه يسرق اباه أحيانا . وتكذب هى السرقة دوما ، تتهم أحد الشغالين فى المصنع ، ويختفى كال يوما أو يومين عن المنزل .. ويختفى أسابيع عن المدرسة الخاصة ، والغريب أنه كان ينجح كل سنة ، قبل رسوبه أربع سنوات متتالية فى التوجيهية . وتخبطه فى كتفه .. ويفتح عينيه ، ويبتسم .

— ماذا تريدين ؟ ..

— أريد (بغضب) .. أبوك منذ ساعتين فى المصنع وأخوك يعمل هناك بجانبه ، وأنت مازلت نائما تماما فى السرير .

(تعود للغضب) متى عدت ليلة أمس .. رائحة أنفاسك مختلطة بالسبرتو .. انك تقتل نفسك ببطء وان تستطيع صحتك احتمال السهر كل هذه الليالى .

وتتسع دوائر الشمس فى الشارع العريض ، لكنها تدخل بحذر أجزخانة عم شفيق العجوز الذى يعيش الآن خارج المنطقة ، لم يتزوج بعد ، ويبيع أدويته بالاجل ، وتبيع له بسيمه كل أسبوع قفص برتقال وموز ، ولا يستريح إلا إذا ذهبت تحكى له كل ليلة نوادر الحى وآخر حكاياته ، حتى حكاية الفتاه «أحلام» التى يحبها كال بلبيسى والتى تمت خطبتها منذ يومين على رجل مشهور عنده دكان يبيع غذاء الطيور وجميع أنواع العطارة المختلفة القديمة .

ويتحرك الهواء الساكن الراكد مع عجلات عربات الطريق وأكتاف الزحام وأقدام المتعبين والنشطين والخائفين .

ينتصف النهار وتكثر عربات النحاس، والخيش، والأنتيكات القديمة، عربة حلوى تتحرك ناحية باب الفتوح، يقولون أنه بجوار باب الفتوح محل قديم قدم الحى نفسه، مازال يصنع حلوى لها أسماء قديمة مثل « الخشكنات والبرماورد » ، ولكن بأسلوب متقشف .

وتصل بسيمه بحملها الجديد ، مكسبها الجديد أو بؤسها الجديد ، ويتحرك الخيش ومربعات الخيوط، وتظهر دوائر البرتقال ومستطيلات الموز المتعرجة ، وينتشر الابتسام ، يتحرك الدنف ويقدم لها بنفسه كرسيها الخاص. بالاجبار كرسى قش طوال اليوم وأمامها دائرة نحاس أو نضد مستطيل ، وكوب شاى الصباح .. ويهزل الدنف معها بقوله:

— هل آتى لك بالبورى والمسل ؟

وتخبطه على صدره .

— متى تخامين السواد يا بسيمه ؟..

— وهل أنا الآن « وحشه » ؟!

ومقهى الدنف بالرغم من الصباح ، فيها جمهرة معقولة ، تشرب الشاى والبورى وتلعب الطاولة والبصرة ، يوجد « فتحى العقاد » وريث مصبغة العقاد يعمل كثيراً ولا يبقى فى المقهى سوى لحظات يستريح فيها .. ثم أطول وأنحف شاب فى الحى، يقولون أنه مازال يبيع أقراص السيكونال الممنوعة بالرغم من الرقابة الشديدة .

وآخر ضيوف الصباح وأهمهم ، وأحقرهم إلى قلب بسيمه هو « نادر أبو شليب »لاعب الطبلة فى ملهى السبع ورقات ، زوجته راقصة نصف مشهورة . يسكنان منذ أشهر قلية فى لوكاندة المصباح الاصفر .

يقولون العجب عن هذا الزواج ، ويبدو « نادر أبو شليب » دائما بالبدلة السوداء والحذاء الأجلسية الأسود اللامع ومربع الجلد الأصفر الذى يعلو الحذاء وأزرار على الجنب . وجيه وسيم ، ولكن صوته به حشرجة مخيفة ، حشرجة القطاعين أولاد الحرام يصبح على بسيمه كل صباح ، وتبتسم له ، ويشترى منها ، وتضحك فى وجهه وتقول له :

متى تلعب فى فرقة الست .. ويقول ان شاء الله ، ونادر أبو شليب صديق لكمال وصديق لجابر تاجر الخيش ولكن بسيمه تلعنه كلما أدار ظهره لها .. لا تحبه ، لا تجد سببا للسخرية منه سوى شكله الوسيم ، سوى أناقته المعتنى بها ، لا تحبه ولا تدرى سببا لذلك .

يقول كمال الذى يدافع عنه دائما فى غيابه :

ــ واحنا مالنا بشغل مراته ، يعرض إمرأته ، مأبون ، قواد ، ليكن .. إنه صديق قعدة ، يقلب العذاب الى مجون ، ويبتسم ويضحك وابن نكته ..

وتقول بسيمه :

ــ هو الحى كان ناقصه .. من أين أتوا هؤلاء الاوغاد . الاقمر فى السماء له مئذنة مبتذلة صنعها المحدثون العاجزون .

* * *

أغرب . وأطيب قلب فى الحى . . هو « فؤاد حراز » . . لا يصادق أحداً سوى كمال بلبيسى — بالرغم من وقوفه نصف يوم يبيع بالآجل وبالقروش المعدودة فى دكان «الصبر والصبار» . . كما تقول اليافطة القديمة وأصص نبات الصبار المنتشرة على واجهة الدكان .

آماله غير محدودة ، حياته سلسلة من العذاب ، أكبر من أخيه الذى ورث معه الدكان بعد مقتل أبيه فى حادث غريب فى بيرجوان .

. يأخذ أهل الحى على فؤاد اغراقه فى مصاحبة أهل الطرق والمشايخ بعد وفاة أبيه ، لا تفوته حضرة إلا وحضرها ، حضرة الامام الشعرانى يوم الجمعة بعد الصلاة ، حضرة السيدة يوم الأحد ، حضرة الحسين يوم الثلاثاء . . يحفظ الكثير من الأوراد والاناشيد مثل «على العقيق اجتمعنا . . نحن وسود العيون» وكثير من الحركات العصبية ، ويأمل فى أن يرى يوما النور أمام عينيه وهو فى حلقة الذكر . .

وعندما يسمع أولاد الحى ذلك منه يضحكون ويسخرون ، خاصة عندما حاول فى البداية أن يشد معه بعض الفتيان للإنضمام إلى مشايخ الطرق ، يلبسون الجلاليب البيضاء والطواقى البيضاء عليها كتابات خضراء ، يجلسون فى دوائر ثم يقفون صفوفا ، يتمايلون . . يغنون بصوت متأوه ، العيون غائرة ، الشفاه مدلاة ، الاصابع تضغط على الاصابع .

كثيراً ما نصحه صديقاه الوحيدان فى الحى كمال بلبيسى والسيدة صاحبة أقفاص البرتقال بالبعد عن هؤلاء وعن الحضرة التى



تأخذ أيامه وتعرضه لسخرية القوم .. ولكن فى انتظار النور الذى سيضىء وجهه فى يوم قريب ، تهون كل المصاعب .. ويوجد شىء آخر يقربه من « بسيمة » هو حبهما المشترك للاقمر ، حتى أنه فى ليلة قرأ عليها مخطوطا بدون غـلاف ، بدون عنوان ، بدون هوامش ، مكتوبا بخط كوفى قـديم تصعب قراءته ، ورق ملون بالتراب ، مدلوق عليه شاى ، محروقة أطرافه بسيجارة مشتعـلة ، مخطوط عن الاقمر ..

والليل يتجمل فى السماء ، النجوم ساقطة مشتعلة محبة للانفراد والعزلة ، السماء قطعة مدندشة بالفضة والزخرف تطل على قاهرة المعز وقاهرة قلاوون، قاهرة عبد الرحمن كتخدا ..

هذه السماء التى رأت العجب ، شهدت الغرائب ، شهدت الكثير من العذاب ،رأت المواكب التى تضم مايزيد عن ألف رجل عليهم المناديل، يتقلدون السيوف ، يسيرون على جانبى الخليفة .. حتى يصل الموكب إلى الساحة أمام الاقمر وهناك تدوى الطبول والصنوج ، ويتقدم الوزير فى خشوع إلى الخليفة ليظهر للناس خدمتـه .. وهنا يقوم الخليفه بتحريك يده، يرفعها ، ثم يخفضها فى الهواء .. وهى مكرمة من أعظم المكارم التى تصدر عن الخليفة ..

تعودت بسيمة أن تنادى على فؤاد إذا رأته عائداً من المدرسة الليلية التى يذهب لها يوميا وتقول ضاحـكة وهى تشير إلى مقهى الدنف رافعة يدها فى الهواء .

— هل كان يفعل الخليفة مثل ما أفعل الآن .. وهل فى مكانه

مقهى الدنف ، كانت تقف المراكب والجيـــوش فى انتظار حركة أصابع الخليفة ؟ . .

كان يجلس الليلة بجانبها كال بلبيسى ، عندما دعت فؤاد . . حاول كال أن يستبق صديقه قليـلا ولـكنه رفض بعناد متوسلا أن يتركه ، الشلة ذات الالسنة النارية على وشك الوصول إلى المقهى . .

وسأل كال بسيمة وهو يرى فؤاد يبتعد :

ــ ألم يعد ابنك منذ تركك صباح أمس .

وخبطت بسيمة بكفها على صدرها البارز الواضح المتكور وقالت:

ــ ليه فكرتنى . . ما كنت ناسية ، يومان لم أره فيهما ، قلبى مأخوذ منى ، على النار يحترق . . لماذا خلقه الله بهـذا الخلل وهو لم يتعد الخامسة .

ويبتسم كال مطمئنا إياها :

ـ بعدقليل سيأتى عسكرى أسود الملابس وفى يده الطفل الحافى الحليق الرأس ، وبدلا من أن تضربيه ، ستقبلينه وتعطينه قرشا ، وستدفعين كل ما تملكين للعسكرى .

على مقهى الدنف . . يجلس خليل الفص وبجانبه زميلاه ، يحكى لهم مصاعب اليوم ومغامراته مع زبون قابله فى ميدان المحطة متجها إلى شارع الملك .

ــ أخذنا منه اليافته والمحبس والبرو ، وبعنا له أسورةمدموغة « جودمان » ويسأل أحد الجالسين عن معنى هذا الكلام .

— معناه أننا سنشترى جلباب وصديرى للدتف .. معناه خاتم وساعه وراديو صغير .

وتضحك الشلة .

— سأدعوكم الليلة على سهرة عند أبو أنور .

— ولم لا نسهر هنا . المخدرات عليك والمياه علينا . .

— والبوازرجية يحوموا علينا كالصقور — المحطة لسه جديدة ونشطة .

— نسهر عند عم كشك صانع الجوز .. يسهر معنا والقعده تحلو..

يعترض كمال ولا اعتراضه اهمية .

يشير على بسيمة فى جلستها بجانب الرتفال ، لا تنهم العيون ، تنقبض الوجوه فى ضيق وتبذل واصفرار .

— مالنا والقسوة (يقول الفص فى تفاخر الموفق فى يومه)

— الوليه حزينة على ولدها .. عيناها منكستان ، لا يغرنكم ضحكها وعبثها ، الولد غالى عليها ، الولد آخر أولادها ، من آخر رجل مات وتركها ، الولد الوحيد الذى تعيش من أجله . هناك تجاس منكمشة تبيع لأجل اللقمة ، ونحن نضحك ونسخر ونخرب الدنيا (يقول كمال بثبات الرجولة)

— ملعون أبو الحزن — نكسب من أجل حزن الآخرين ، ملعون الولد ومن أنجبه للضياع ..

— ملعون الذى لا يفهم فى حزن الآخرين..عيناك مفنجلة ليوم موفق عيناها مفنجلة ليأس عدة أيام ، الولد عمره ما غاب الا ليلة واحدة

ـــ كسبت يوم ، وخسرت هي عدة أيام، عندها بالعمر كله ، ولا تعرف هل سيأتي أم لا ؟ .. وفي بداية الشجار ، ووقوف الآخرين متفرجين خائفين من بأس كمال وغضبه المفاجئ ورميه الكراسي في الهواء ، وصراخه وقوته الضاغطة بالرغم من قصر قامته وعدم وضوح قوته الجسدية ، خليل الفص يخاف اللحظات القادمة ، زميلاه اعتذرا وتركا المكان سريعا دون أن يرد عليهم أحد بالسلام ..

ولما بدأت المشاجرة الملتهبة والحازمة والتي لا يستطيع الفص تجنبها حتى لا يتعرض للقيل والقال.. وتحتقره العيون وتبتعد عنه الوجوه..

ولما كان الليل لا يريد الصخب المبالغ فيه والسماء الصافية المزدحمة بالنجوم لا تريد العنف. فقد جاء في الوقت المناسب العسكري الأسود ومعه الطفل يشده بصعوبة من يده وهو يكاد ينام في سيره ، حافي، قذر ، جلبابه القصير هباب ، عاري الصدر ، الأزرار قطعت منه ، سرواله يزل تحت أطراف الجلباب .

وسلم العسكري الطفل وأخذ نصيبه من المعلوم ، ونظرت الأم إلى وليدها الذي ينظر دوما لها شزراً أو كارها ، ولا تعرف بسيمه لم لا يحترمها الولد ولم لا يريدها ولم لا ينام في حضنها الا بالاجبار وبالشرطة. ولا أحد يعرف لماذا جبل هذا الولد على هذا العقوق . لا أحد في سنه ولا في مقدرته ولا في قامته يفعل ما يفعل ..

وأعطته أمه خمسة قروش ليشتري بها ما يريد من عشاء، واستحلفته بالله وبالغالي ألا يذهب بعيداً ويتركها مرة أخرى فريســة للألم والعـــذاب ...

ـــ يكفى ما نلته منك ـ ترفق بى يا ولدى .

ولمح كال الدموع فى عينى المرأة . قال لها وهو يقترب منها :

لماذا لا تتزوجين يا بسيمه ، ألا تحلمين بأنك داخل حضن رجل يدفئك؟ ...

ـــ وهذا الولد .. لمن أتركه ؟ ألم ترعينيه وهو ينظر لى .. فكيف لو تزوجت .

ـــ ولكن حقيقة .. ماذا تفعلين وأنت التى تزوجت (وهى لم تبلغ الرابعـــة عشر من عمـــرها) ثلاثة رجال . فكيف تتحملين بعد الرجال .

وقالت بسيمة فى غضب رائع .

ـــ اسكت يا ولد .

ـــ يا بسيمه .. أشعر بك .. أنت المرأة الجميلة القويه التى لم تبلغ بعد الثلاثين ـ أشعر بك ، حقيقة كيف تخمدين القلق .. كيف تسكنين النار والشوق .

ـــ لو كنت أكبر يا كمال .. لكنت عشقتك .. أحبك ولكنك مازلت عيل .

وتبتسم القلوب، شوء داخل القلوب لا تستطيع أن تمسكه ، فى دمعة عين ، فى إجفالة رمش ، فى زمة شفايف ، فى تدويرة خد ..

قلب يريد أن يستره قلب آخر .. يشعر بحمله ، يشعر بثقله ، ولولا

الناس وزحام المقهى وصاحب الأجزخانة التى مازالت ساهرة، والربع الذى يحتل مكانا ضخما ، ودكان صانع الجوازات ، لولا كل هذا . . وهذا الأقر الذى يزن المنطقة ، لحـــدث كل ما كانت تتمنى القلوب والشفاه غير عابئة بهـــذا العصر ، وبكل هؤلاء الكسالى الحاقدين الغاضبين الكارهين حتى لأنفسهم .

وصرخت الجماعه بما فيها خليل الفص على كمال لينضم إليهم فى السهرة الخاصة المغلقة المدخنة فى دكان صانع الجوازات

يصنعون هناك « لى الجوز » . . عصا زان يلف عليها دوائر غريبة سريعة من السلك ثم تدهن العصا بالنشا اللزج ثم جلد ضأن لونه قرنفلى . . ثم تدار ماكينة . . ويدور خيط على العصا ، تنزل دوائر الخيط على دوائر السلك — لكى تصبح العجينة والجلد والسلك والخيط لى الجوز والبورى والنرجيله . وتحيا وتحيي الليالى الرائعة يساعد الوجوه على التـــدخين ، ويعبق الجو برائحة الدخان ، يزيل قليلا من الألم ، يثير كثيراً من الشجن والذكريات ..

وتدخل الشلة دكان صانع الجوزات ، يراقبون بشراهة الجوزة والفحم وهو يرص فى تؤدة فوق المعسل اللزج الشهى ، وابور جاز عليه حله بها ماء ماو ـــ ، خايط من سكر معقود وسبرتو أبيض أحضره التمرجى من المستشفى الذى يعمـــل فيه ، ويقول الفص:

— أجمل من الويسكى الأصلى .

— امضى ياحبيبى .

— الورد فى القفة ، والمص فى الشفة ، والداخل فى الداخل ، واللــــذة فى الآخر . . والطبلية عليها ثلاثة حجارة ، ومنقد صغير به قوالح موردة اللون وماشة ، وورق سوليفان داخله المعسل وثلاثة أكواب بها ماء ملون . .

— ايديه ولمت ياجماعة . .

— يا حبيبى . . ذهبت أمس عند البفت التى تعمل عند السفير ، فوجدت بعظمة وأثاث رائع . الفتاة قبيحة ولكنها طيبة وتميل الى ، عرفتنى بزوجة السفير على أنى أخوها الذى يعمل فى أحد مصانع بنها .

— ماء البرطمان اتغير لونه . . إيه رأيكم لو وضعنا سبرتو نقى بدلا من الماء الحامض . .

— اصطبح ، العيون أصبحت حمراء .

والغابة فى الفم ، والدخان يتبعثر فى الجو . . والاقمر بواجهته الضيقة على الشارع الواسع ، يطل عليهم ، بقضبانه التى تفصله عنهم ، بسردابه الذى يخفى جزءاً منه ، بنقوشه المدفونة فى الصرح ، ببوابته الضيقة المقفلة ، هناك شق عرضى فى الزاوية بجانب المقهى .

— ديزل ياجدع ، قطر سكة حديد ، وحجر وراء حجر .

ويقول كال عن النار المشتعلة فى المنقد الصغير .

إنها نار رائعة كجهنم ، بها جميع الألوان من الاصفر إلى البنفسجى وتصحب الجماعة فيه بصوت واحد : اتمس . .

وأصوات أخميرة وشفطة ثم كحة عنيفة ، ودخان يتصاعد من الانف ، يقتل الوقت ، ويقتل الجزء الخاص بالحنجرة . . وتلعب

اللعبـــة الغادرة بالعقول ، وتمتـــد الأرجـــل الخالعة للأحذية في الهواء . .

متى نصـــل إلى المراد ، ونشعر بالحرية . . ملعون أبو الفلوس (يتساءل فتوح سائق التاكسي ..) الذى انضم إليهم أخيراً ، لا يغفل عن سهرة ما . . لا يدفع شيئاً ولكن يشارك دوما فى اللذة . .

كل ذلك فى سبيل قروش جديدة تضاف إلى الرصيد السابق . . من أجل شراء عربة خاصة . .

— يا كافر . . هل ستصنع ناراً من هذا الرماد .

— ابن اللئيمة عاوز يولع ، عنده موتور سنة سلندر .

— امضى ياروحى ، قبل أن تنطفىء النار .

— حظى وحش يا جماعة . . لا أمل لى فى أن أشترى أو أدخل نصف شريك فى تاكسى العمر .

— لن تشبع أبداً يافتـوح ، ستشترى تاكسى وراء تاكسى، ولكنك ستعيش بنفس الخوف والبخل .

— لماذا تضيعون المتعة فى هذا الكلام . . النار انطفأت ومن الصعب إشعالها مرة أخرى .

— ولو.. الأقر يدارى واجهته قليلا حتى لا يرانا ونحن فى هذه الحالة البينة من الإنكماش والذهول.

— ولو دارى الأقر واجهته ، هل تغمض عين القمر .

— إنه للحظ لم يظهر هذه الليلة ، السماء مظلة بدون قمر . . الن

تذهب يافتوح للنوم مثلنا . .

ـــ سأعمل قليلا ، قد أجد زبون ، ستمع ، قبل أن يظهر الفجر ، يدفع ، بقشيش ، خيالى .

ويقول كال :

ـــ سنذهب للنوم ، هناك بريق ، شعاع يظهر من بعيد ، قد يكون الفجر ، الفجر حلو . . هل حقيقة كما يقولون . . لم أشاهده أبداً فى حياتى ، أمى توقظنى متأخراً دوما .

ـــ أصبحت شاعراً يا حبيبى .

ـــ أصبحت بائساً حقيراً . . لا أدارى نفسى ، مكان بسيمة خال الشارع مقفر ، المقهى مسدل الستائر ، منزلى بعيد ، خطوات متعبة ، كيف سأصعد الدرجات ، أبى مع أمى وأنا وحدى على السرير . . أخى الأصغر سيتزوج الشهر القادم ، الولد الناجح لأبى . . وأنا . . .

الدرجات طويلة ، ساعدنى يافص على الصعود . . قبل أن يتناثر الضـــوء ، يتساقط الشهاب ويستيقظ أبى يصب لعناته على . . أضع المفتاح فى الحرم بدون ازعاج ، أخى ابن أبيه ينام فى حجرة بجانب الباب ، يحرس الضيعات والبوابات ، نشط كفء .

* *

(٤)

بعد الغروب . تقابل كال وأحلام ، إخترقا شارع السقالية ، مارين على أكثر من معبد لليهود القرايين ، سألته عن مصير هذه المعابد .

فقال لها : توجد واحدة مازالت مفتوحة، يقال اسمها معبد الأستاذ، يؤمها عواجيز اليهود يوم السبت .. وعندما خرجا من شارع مكسر الخشب ، قابلهما زحام السوق ورائحة البضاعة الفجة المفعمة بالحرارة واللوعة، وكثرة النداءات، وربطهما معاً صوت نسائي ينادى بطريقة لوجة على بضائع تصلح للبيت .

وخرجا للنور الخافت ، مارين على مدرستها القــــديمة بجــانب مسجد زردق .

تحركت سحابة رمادية فى السماء ، اللون الغامق يدخل بحذر ، الناس تعود إلى منازلها كأنها منومة مغناطيسيا . فى عوس الزحام التقط ذراعها بذراعه .

جميلة نضرة كما كانت دائما ، يعرفها منذ أكثر من عشرين عاما ، أيام كانت تسكن فى شارع المعز فى بيت قديم قبل بناء لوكاندة « المصباح الأصفر » . بيت قديم يشبه إلى حد كبير الوكالة القديمة التى يسكنها فتوح ويسكنها أفقر سكان الحى .. كل عائلة فى حجرة مسقوفة بالعروق والقش والطين ..

كان يلعب دوما معها ، أحبها وهى طفلة صغيرة، كانت شقية متوحشة، يذكر يوم أن عضته فى صدره ، شدت حلمة ثديه الشمال بأسنانها

كان دائما يختلى بها تحت السلم، علمته الكثير عن الحب من اللحظات التى يصعب تعويضها .

أبوها كان يعمل مقاول أنفار بسيط . ولكنه كان مختل العقل ، كل مكسبه من العمل يخسره فى القمار ، فى السباق - يذهب السباق حافيا، لا يخجل من شىء ، عندما يكسب يعود بتاكسى ..

لم يدم على هذا الحال طويلا حتى أخذه الموت راحة له وراحة لهم ، الأم كانت نشطة ، تعمل فى منازل خارج الحى ، ربت أولادها تربية جيدة ، ابنها الأكبر أسطى ممتاز يعمل فى ربع السلسلة ، يشهد له الجميع بمهارة الصنعة ، ابنها الثانى « مستوظف » بالبكالوريا، وأحلام .. علمتها حتى أخذت التوجيهية السنة الماضية ، وتعمل الآن بجانب الباب الأخضر فى فرع لوزارة الأوقاف ، عندها عدة دفاتر ودوسيهات بها سجلات الآثار والأوقاف العامة والخاصة ، تصعد إلى عملها على درجات رخامية نظيفة.

وانتقلت العائلة بعد هدم الوكالة ، لتحل محلها اللوكاندة، إلى منزل بالقرب من قاعة الفضة بعيداً عن المنطقة وقريباً من بين الصورين . .

خطبت أحلام منذ أيام إلى رجل كبير ، له محل فى طريق بوابة المتولى ، هناك تكثر محلات بيع غذاء الطيور وأنواع البذور المختلفة وتزيد المنافسة بين البائعين

الرجل يكبرها بعشرين عاما أو أكثر . قدمته لهم جارة تعمل

فى هذا الشأن كان متزوجا وماتت زوجته السنة الماضية ..

كل المنطقة تمتدح هذا الرجل ، كرم ورجولة هذا الرجل .

كال يقف حائرا أمام هذه الخطبه ، أراد أن يكون له السبق ، حاول .. رفض أبوه حتى أقسم أن يحرمه ميراث المصانع والدكاكين والعمارات . وأن يطرده من المنزل وخاصة أن البنت تكبره بسنة أو سنتين ، وأنها كانت وضيعة النشأة ، تسكن أمامهم فى دار حقيرة لا يسكنها إلا الأوباش حقراء الحى .

وعندما يناقش كال أباه فى الرجل المتقدم لخطبتها ، يكون هناك أكثر من رد مفحم ، بأن الرجل تعرف عليهم فى حياتهم الجديدة ، ولم يرهم فى نشأتهم الأولى الوضيعة . ولم ير أباها المقامر العجوز الحافى والمرأة التى كانت تعمل فى المنازل ، تحلف أمه بأنها كانت تأتى عندهم فى العيد لعجن الكعك ، وخبزه فى الفرن ، وأنها كانت تحرمها من لحم خروف العيد . حتى « أحلام » نفسها كانت لها العيدية الخاصة هى وإخوتها الذين أصبحوا كبارا وانتقلوا بعيدا عن المنطقة .

ولم يجد كال جوابا يرد به على أحلام سوى المماطلة بأنه سينجح هذه السنة وسيدخل الجامعة ، وحينئذ سيصبح له شأن آخر . أربع سنوات ولا يأخذ التوجيهية . أخوه الأصغر لم يكمل دراسته ولكنه نجح فى المصنع .

وهو لا نجاح فى المصنع ولا الدراسة .. كانت أمه تود لو يصبح لها إبن متعلم .. دكتور مثلا ، ولكن الأيام تضيع ويصعب تحقيق المستحيل ..

المصنع لا يعايقه بالصبيان والبنات الصغيرات اللاتى يشتغلن بالخيوط ولف دوائر البكر ، كم يكرة الموتورات القديمة التى ما زالت تعمل بالكيروسين . كم يكره صخب أبيه مع دوار الموتور ، و« فكرى » كاتب المصنع العجوز المراهق الذى لا يمنعه سنه من مد يده على أردية البنات الصغيرات .. يجد لذة شديدة فى ضربهن حتى تحمر وجوههن من الغضب ، وتجرى يده فى الخفاء تعبث بما حرمه الله إلا للأزواج .

يكره المصنع ، ضربات الماكينات ، اسطوانات حولها خيـــوط تتحرك فى بلادة ، مكاكيك تلتئم ويعود عليها عدة ملايين من الخيوط لتصبح شريطاً للمبات الجاز ذوات الخط الأزرق فى وسطها . الماكينة الجديدة صوتها مزعج كحيوان متوحش أجرب يعانى من مرض فى أمعائه .. بكر يأخذ ولا يعطى ، دفوف ترتفع ، دفوف تنخفض ، وسواطير ترتفع وتنخفض على رقبته كلما دخل المصنع ورأى الأولاد الصغار الحفاة العاملين من طلعة الشمس حتى وضوح القمر وسط تعنيف الأب والابن .

لم يعد يحب أخاه الأصغر - أصبح صورة طبق الأصل من أبيه - يستحوذ على اهتمام العاملين ، يخافه عم فكرى وجميع الأولاد ، حتى الأب أصبح يخافه الآن ولذلك بالرغم من هدوئه البادى ، ووجهه الصبوح فان الجميع يعملون حسابه . .

سيتزوج بعد شهر واحد ، إبنة أغنى أغنياء تجار النحاس فى المنطقة ، يفت الخزرجى ، كلها صفقات بين تجار المال والخردة والخيوط .

أخوه لا يزور العروسة إلا لماما ، لا يحبها ، دائم الجلوس في وقت الفراغ على مقهى عند الأزهر يلعب الكومي مع أصدقائه ، أو يأخذ عربة الأب في جولة بوسط البلد ..

آماله في الحياه محدودة ، لا يشرب ، لا يدخن مخدرات ، لا يعاكس بنات أو سيدات ، وليست له علاقات محرمة .

قالت أحلام لكمال وهما يتجهان ناحيه الأزبكية إلى حديقة هناك ، لها أضواء هادئه ، ونضد متفرقة ، ونجيلي محترق ، وجرسونات تحرك شيئهم قروش بسيطة فيتركونهما في حالهما لمدة طويلة في ظل أشجار نابتة منذ زمن طويل .

قد تكون أشجار قديمة من أيام بركة الأزبكية والتي كان يؤمها الفرنسيون وابتدعوها أيام احتلالهم للقاهرة .

لا يرد كمال .. سارح في المصنع ، أبيه ، أخيه الأصغر ، في احساسه بالخيبة الشديدة والمذلة ، لن يستطيع النجاح أبدا ، سنوات الدراسة السابقة كان ينجح فيها بالغش أو برشوة المدرسين في المدرسة الخاصة التي الحقه بها جده .

وتقول أحلام في حدة :

ـ لن يتم زفافي به .. حتى ولو تأخرت سنة في التقدم لي .. أمي تعرف الحكاية من بدايتها ، وتعرف أننا نحب بعض ـ أمي تعلم أن الحاج بلبيسى لن يقبل أن يزوج ابنه بي .. أمي تعلم ولذلك قبلت زواجي من الرجل الكريم صاحب دكان بيع البذور . لا أكرهه ، لا

أحقد عليه ، لا سبب عندى لذلك . عنده ابن يصغرنى بشهور يدرس فى كلية الطب .

كال .. لا يجد ما يقـــوله ـ بعيداً عن الشلة وبسيمه والأقمـــر والمخدرات والضحك والقهوة ـ حيث يكون بطلا يخافه الكبار والصغار ـ يصبح لاشىء .

أحلام معها شهادة وتعمل . وهو ليس معه شىء ولا يعمل ... هى ستتزوج وهو سيتفرج .. إنه لا يثق بحديثها وأنها ستؤجل يوم الزواج بقدر المستطاع . فقد يتحقق المستحيل . .

— لماذا لا تتزوجنى .. نحن راشدان .. أمى لن تقول شيئاً . . اخوتى سيعترضون ثم يرضون مضطرين ، إنى أصرف على نفسى الآن ـ يمكنك أن تعمل بعد أن تأخذ التوجيهية هذه السنة .

— ولكن . .

— ماذا بك .. انك تحلم بأشياء بعيدة .. هل تحب أخرى ؟

وينقطع الحديث بينهما ، أربع أوزات تتحرك فى مياه عطنة فى بركة مغطاه بحشائش مهوشة لا تجد من يهذبها .

يقول كال :

— إنى أعرف نفسى .. لن أنجح هذه السنة ولا السنة القادمة .

وتفتح أحلام فمها ولكنها لا تتكلم ..

— أبى غاضب منى ولكن لا أمل ، أربع سنوات ولم أنجح ،

محصولى من التعليم محصول ولد فى ابتدائى ، لا أعرف كيف أركب جملة بلغة أجنبية .

وتثور تقاطيع وجه أحلام، ولكن الصمت أقوى من الكلمات..

يعود شبحان فى الليل ، شبحان مكتئبان ، الحب يخترق قلبيهما .

— لن أستطيع أبدأ الاستمرار ، المصنع لا أطيقه ، أبى يلح على منذ أيام أن أدخل معهم المصنع، جدى يكاد يتوسل بعيون قديمه ذابلة، أن أفهم سر الصنعة حتى يخافى الأولاد الصغار ، وحتى أجد لنفسى طريقا بعد سنوات طوال ، يجب أن أجد لنفسى مكانا ، ومطلوب منى أن أبدأ فوراً أو أضيع ..

أمى مازالت تحلم ـ كشاعر خائب ـ بالطب، ولذلك تضغط بالمدرسين.

وتتركه أحلام عند تقاطع مكسر الخشب مع شارع جوهر الصقلى، بعـــد تكرار لكلمات الحب ، وأنها لن تتزوج الرجل مهما كانت الأسباب ، وأنها ستبقى على طريق الانتظار .

ويتقدم كال بخطوات مكشوفة إلى ناصيتة المعهوده حيث يجلس الجميع فى انتظار خلو المنطقة من المتحركين شمالا أو جنوبا حيث تبدأ القعدة المعتاده حتى الفجر والتى يجد كال نفسه فيها يوميا .. وبانتظام .

* * *

(٥)

انطلقت صرخة مشحونة ، تلتها صرخات متتالية نافرة لا يتحملها أحد « يضربنى المجنون » ثم انحرفت الكلمات وتداخلت « الشاذ » المجنون » يسرق أموالى هذا المأبون الأحمق القواد » وبالرغم من أن الكلمات كانت صراخا عاليا مشحونا بالكره والضيق والحقد ، تتتابع بسرعة مخيفة ، إلا أن الجالسين على المقهى التى مازالت مفتوحة خصيصا لهم فسروها : إنه يوم راحة الطبال نادر أبوشليب - وعرفوا جيداً ، وتأكدوا من أن الصوت هو صوت زوجته الراقصة اللهلوبة كما يكتب عنها فى الإعلان أمام الصالة التى تعمل بها فى شارع الألفى .

رأوها منذ قليل وهى آتية ترتدى رداءا قصيرا جدا .. تسير متمهلة على الطريق المبلط بالحجارة ، يكاد كعبا حذائها يغوصان فى الماء والوحل ، ردفاها يتحركان فى حلاوة مضنية للعقل ، الفتحة بين الساقين واسعة ، بها عيب منذ الطفولة ، كانت ترتدى رداءا برتقاليا لامعا ، تضع على كتفيها شالا أبيض ، لو رأتها بسيمة ، لكانت عاكستها بكلمات وامتدحتها كثيراً . . وخاصة على رقصها الذى لم تر أجمل منه .. ثم بعد أن تتحرك خطوات ، تنزل عليها لعنات يوم القيامة ، وقد تسمعها زينات وهى تدخل من باب اللوكاندة ، ولكن بسيمه لا تهتم .. المهم أنها تركت أقفاص البرتقال ، ورحبت بها فى وسط الشارع . . ولكن الصراخ يزداد ، ولا أحد يفتح خصاص نوافذه

ليبحث عن سبب الصراخ ، كأنهم جميعاً يعلمون من هي الصارخة ومن هو المتسبب .

يتحرك كمال وشلته .. يجب أن نصعد إلى نادر أبو شليب ، حتى لا يقتل المرأة ، وتغمز العيون : وحتى ترى المرأة جيداً ، انك لا تترك فرصة الا وتقترب منها .. لحظة القشطة ، القطعة الهشة ، تدخل فيها ، وتدوس عليها ، تجد الدفء والحنان ولحظة استغراق ، لحظة قصيرة الوقت ، ولكن ما أجملها ، ما أمتعها ، تتمنى أن تعود مرة أخرى ، ولكن قد لا تعود أبداً بنفس الشكل .

ويتقدم كمال وراءه خليل الفص وفتوح الذى سلم التاكسى مبكرا هذه الليلة ، وتبقى بقية الشلة تنتظر تفاصيل الحكاية المثيرة .

وترتفع صرخة قوية كأنها موجهة للسماء ، تفتح لها فى وقت واحد جميع النوافذ ، وتطل النساء والرجال وبعض الأولاد والبنـــات ، ويسود المنطقة الهمهمات المختلفة . ويسمع كمال صوت أمه تتحدث مع أبيه فى نافذة حجرتهما ، ويرنو ببصره ناحية نافذة أخيه الاصغر محمود ولكنه يجدها مغلقة ، انه لا يهتم أبداً بهذا الحى أو بسكانه ، يكفيه المصنع والنقود والعربة ولعبة البصرة النظيفة مع أصدقائه ، يكفيه أنه سيرث النفوذ والمكانة فى المصنع وبين العائلة .

ويدخل الثلاثة اللوكاندة ، ويتذكر فتوح وهو يصعد الدرجات حكاية حدثت له منذ أسابيع فى هذه اللوكاندة ، عندما اصطاد أحـد المنحرفين جنسياً من شوارع مصر الجديدة وطمع فى ماله وساعته الثمينة ، وجاء به الى لوكاندة « المصباح الاصفر » ، وأفهم صديقا

له يعمل فى تصليح التليفونات وينزل فى إحدى الحجرات ، أنه زبون لقطة ، يستطيعان سويا أن «ينفضاه» ولكن لسوء حظ الاثنين، يفتح فراش اللوكاندة عليهما الباب ، ويصرخ فى الليل بنفس صراخ الليلة . وتصبح الحكاية فضيحة ، ويختفى المطلوب من هذه الشقة وتضيع البيعة، وينزل فتوح والرجل شبه عاريين ، ولكن بدون نوافذ مفتوحة ولا رجال أو نساء عيونهم مبحلقة كهذه الليلة ، وهذه يجب الشكر فيها لله وللأقدر الذى يغمض عيونه كثيراً عن الموبقات التى تحدث حوله .

ويتقدم خليل الفص ، ويدق حجرة نادر أبو شليب . واللوكاندة ليست لوكاندة بالمعنى المعروف . وانما منزل من ثلاثة أدوار ، كل دور شقة واحدة ، أربع حجرات ، وباب الشقة الأصلى مفتوح ، حجرة نادر أبو شليب لها باب على بسطة السلم ، كانت تصلح حجرة للمسافرين » .

واللوكاندة لها بواب أو فراش ليلى يجلس عند كشك بجانب الباب ، لكنه غائب دائما فى خمارة أبو أنور . رجل زنجى مزاجه حاد .. ولكن لسوء « حظ فتوح » انه عاد مبكرا فى ليلته اياها .

ويدق الفص بخبطات عنيفة متتالية . ويفتح نادر أبو شليب الباب .. ويفاجأ بوجود الثلاثه أمامه ، ويزيح كال الفص محاولا الدخول .. ويتردد نادر أبو شليب ، ولولا خوفه من كال ونفوذه فى المنطقة وأنه يعتبر حبيبه وصديقه والمدافع عنه فى غيابة لولا ذلك لقفل الباب ثانيا فى وجوه الثلاثة .

ويدخل الثلاثة .. السرير النحاس له أربع قوائم ، وبطانية حمراء

ملقاة عليه بإهمال ، وكنبه عربى بجانب إحدى النوافذ المقفولة ، ونضد عليه صينية لقلة ما ، وكوب به زهرة واحدة ، ودولاب قديم بسيط يستند على جدار عودى على جدار الكنبة .. والمرأة ملقاة على الأرض تنزف دما ، وعصا رفيعة ملقاة على الكنبة .

المرأة شبه مغمى عليهـــا ، مضروبة حتى الموت . كانت ما زالت تحاول أن ترتدى قميص نومها الملقى بجانبها .

ويجلس نادر أبو شليب ، على وجهه امارات الكدر والخوف والحذر . لا يريد أن يتكلم .. هذه حكاية خاصة به وبامرأته ، وليست أول مرة تنزف فيها دما من أنفها ، أو يغمى عليها ، وكثيرا ما تغيبت عن العمل بسبب حوادث مماثلة ، وأنا أعرفها ، إنها تحتاج من حين لآخر لهذه المعاملة .

ويرقدون المرأة على السرير ، فخذاها عاريان ممتلئان ، بفجوة صغيرة تحت عظمة الركبة اليمنى ، شعيرات قليلة نابتة حول ساقيها ، قدماها سمينتان . لو لم يروا القدمين لكان أفضل .

اسعافات أولية لوقف نزيف الأنف .. واستيقظت المرأة بعد إغماءه متعبة ، وجهها منهوك ، خطان من الدموع ملتصقان بالبودرة والكريمات المختلفة ، وجه قبيح عليه خطوط سوداء وبيضاء ، وأحمر غامق على الشفاه ، والعيون ضيقة حولها هالات من اللون الأزرق والرموش الصناعية .

نادر أبو شليب .. يجلس مستكينا يدخن سيجارة مخدرات ، كأنه

مصاب بطعنه قوية فى صدره ، يدارى عواطفه . كال يشرف على إفاقة المرأة ، فتوح يفتح النوافذ لتدخل نسمة تجدد الهواء والنشاط للمرأة التى كانت مفقودة إلى حين .

وقالت المرأة من بين أسنان مطبقة ، لا تستطيع الحديث بنفس انطلاقتها الأولى :

— هذا الخائن كان يخوننى مع زوجة جارنا الصول فى قسم الجمالية ، هل تتصورون ذلك .. أدخل عليهما ، أجدهما متلبسين على فراشى ، ماذا يعجبه فى تلك المرأة . . . أردافها ، عجيزتها التى تملأ شوال ، وجهها الممتلىء بالبثور والندوب ، ماذا يحب فيها ؟ متزوج من غيرى وله ابنة ، ولا أتكلم أما أن يدخل امرأة جارنا إلى فراشى فهذا مالا أطيقه .. هذا المخادع القذر يضربنى بدلا من أن يشعر بالخجل ..

كانت تتكلم وهى فى حماية «كال» ، والاثنين المصاحبين له ، حاول نادر أن يسكتها لكنه لم يستطع أمام حشرجة صوتها الواهن وبعد فضيحته أمام العيون ، من المرأة التى كان بينها وبين القبر خطوات ، فلما سكت واستكان ، تمادت المرأة فى غضبها المتعب ..

وعادت زينات إلى حديثها الواهن :

— هذه المرأة لن تمكث يوما آخر فى اللوكاندة، سأقتلها سأفضحها فى كل مكان ، سأمزقها أمام كل العيون .

وقال نادر أبو شايب فى وداعة غريبة عليه .

ـــ ولم تحصـــين على عدد من أرافقهم ؟ وأنت ألا تنفقين الليل تفتحين للزبائن وتغازلين سمار الليل فى الملهى .. هل أتكلم أنا ؟..

وبصقت المرأة على الأرض وقالت :

ـــ أنت تعرفنى وتستغلنى وتأخذ كل ما أملك أولا بأول . . تعطيه لزوجتك الأولى أم ابنتك ، أو لعشيقتك زوجة الصول ، السمينة المقتولة المدعية الذئبة . . هذا عملى ، هـــل تريدنى أن أتركه ؟ إذا أردت فليكن ذلك من الغد ، سأبقى لك ، تعوانى وتصرف على بدلا من أن أصرف أنا عليك .. وعادت المرأة تقول فى غضب :

ـــ لماذا لم تذهب عندها ، بدلا من أن تدنس فراشى ، يتقيأ على فراشى ، يبقعة بامرأة أخرى وجسد آخر .

وكادت المرأة أن تنهض من فراشها مولولة مرة أخرى . . لولا أن نادر أبو شليب لطمها لطمة قوية على فكها ، أدارتها وجعلتها ترى الخطر ، تراه قائما منتصبا مرة أخرى .. وسكت الجميع ، وسكنت المرأة إلا من شهقات ودموع . .

ـــ لا تكترثوا لها ، إنها دوما تصيد المزاج العكر والمشاكل ، أزعجناكم وأخرجناكم من الانبساط . . غدا . . سأرد لكما الجميل .. أما هذه المرأة العكرة فأنا قادر عليها . .

وتلمست المرأة يد كمال وهو يستعد للخروج ، اشتكت له بدموع وعيون غارقة فى الألم . . وخرج الثلاثة إلى الطريق الندى المعلن يوما جديد .

فى اليوم التالي . . شاهدت المنطقة عربة عفش صغيرة بيد ، تنقل

أحمال وطشت وحقائب الصول وزوجته، الجميع كان يتندر بحكاية الأمس .

وعندما خرج الرجل وزوجته السمينة ، بصق الجميع وراءهما ، تحدثوا عن المرأة الخائنة والمرأة المظلومة والرجل الجشع والزوج الضعيف .

لم تخرج زينات الليلة كعادتها .. فقط فى التاسعة ، خرج نادر أبو شليب بنفس زيه المنشى الغامق وحذائه الأسود عليه شريط من اللون الأصفر الداكن .. خرج بطوله وعرضه ، يلقى بتحية المساء على الجميع ، لم ترد بسيمة غضباً وقرفاً .. وسار مستمرا فى طريقه إلى الأزهر .

وقال كال لبسيمة فى همس :

لم لا نصعد إلى المرأة لنطمئن عليها ..

وتعجبت بسيمة وقالت :

— هل شبكت أمس .. أعرف طيشك ونزواتك ، ولكنها لن تتركك إلا وأنت مفلس عظيم ، إنها لغاوية لهذا الصنف الغنى .

وقال كال :

— أبى هو الغنى ، أما أنا فلس حقير ..

ومع ذلك دلف بعد قليل - وفى قلة من الزحام ، ومن وراء العيون المفنجلة - شبحان لسيدة وشاب إلى اللوكاندة .

وعندما أعادا الدق على الباب ، فتحت لهم زينات وكانت ترتدى روبا ، وقد أحاطت رأسها بايشارب ملون .

* * *

(٦)

صدرها عار، الشديان بارزان ، قيص رجالى مفكوكة جميع أزراره ، يمد ذراعيه ، يحيط عنقها ، يجذبها ، شفتاه على شفتاها ، سائل لزج بينهما ، لحظة سكون .. شفتاه تتحركان على الوجه ، على الجبهة ، على الخدين ، على الانف ، ثم تعود إلى مكانها الطبيعى . تبرز أسنان تلتهم الشفتين الرقيقتين . الاصابع تقسو بشدة ، تضغط الايدى ، تتحرك بقوة على الكتفين ، على الصدر ، على الفخذين . أصبح العنف من شيمة الاصابع ، والرقة من نصيب الشفتين .

فى لحظة تأمل ، يتعمق كمال الوجه الذى أمامه ، والذى رضى وقبل بسهولة مبادلته الحب ، بمجرد أن تركتهما بسيمه لبضاعتها المكشوفة .

الانف دقيق ، الشفتان رقيقتان محصورتان ، الحاجبان قصيران رقيقان ، العينان ضيقتان ، خصلة من الشعر على الجبهة ، الجبهة شبه منحرف ، الاذنان مثقوبتان يتدلى منهما قرطان مستديران ، الشعر منسدل دون ترتيب على الصدغين ، خطان قاسيان يحددان الوجه .

. . . .

لحظة قرف قصيرة تتلاشى مع الجنس الحراق .

وتهدأ النشوة تماما ، ويدير كمال الراديو الموجود بجانب السرير ، زينات ترتب شعرها ، تهيء نفسها للجلوس معه ، فى عينيها هدوء القسوة ..

ويقول كمال فى نفسه : لحظة الحب انتهت سريعا وتركت وراءها الملل ، لايمكن أن يستمر الحب على طريق الشهوة ، واستأذنت زينات منه لتأخذ حماما ساخنا ، صوت وابور الجاز يفزع صدره ، وعندما خرجت من الحمام صبت الشاى الساخن وقدمته له ، وتساءل كمال :

ــ متى سيعود نادر أبو شليب .

ــ سيعود مع الفجر وقد لايعود، مازال غاضبا منى بعد أن ضبطه أمس مع زوجة الجار ، قد يذهب وينام عند زوجته الأولى ..

وصمتت زينات لحظة قصيرة . . ثم قالت دون خجل :

ــ هل معك « فلوس » . . أريد أن أشترى عشاءا لى ولك . . سأنادى البواب .

وأخرج كمال الجنيه الوحيد الذى فى جيبه ، ومصمصت زينات شفتيها باحتقار وقالت :

ــ هذا لايكفى لعشائنا نحن الاثنين .

وقال كمال فى خجل :

ــ لا أحمل غيره . . وسأتعشى فى منزلى .

عندما قام إلى باب الحجرة ، لم تودعه زينات ، لم تسأله أن يأتيها مرة أخرى ، لم تذكره بموعدهما فى الملاهى بعد أسبوع ، بعد انقضاء فترة الاجازة واسترجاع صحتها من تاثير علقة زوجها أمس.. لم تذكره ، لم تودعه . لم تقل له كلمة حـــلوة وهى التى قالت له كل



الـكلام الحلو الشهي منذ لحظات ، حتى تمنت تقبيل قدميه ، ولم تترك جزءا من أصابع يديه أو كفيه أو ظهر يديه الا وتركت أثرا عليها من شفتيها .. بجانب الكلمات الغريبة والاصوات المنغمة التي تصاعدت مع الحب واللذة .

الآن تتجاهله تماما ..

خرج كال ولم يبق معه سوى قروش معدودة ، أبوه لا يعطيه سوى نصف جنيه مصروف ، والشيء العظيم أنه وجدمعه اليوم جنيها .. لم يحتقرها وهو يدب بقدميه في الشارع الرطب .. يشاهد أول ما يشاهد بسيمه وهي تجلس وراء أقفاصهـا تلاعب صغيرها الذي عاد اليوم بعد غيبة .

ونظرت له بسيمه مستفسرة وقالت ضاحكة :

— « اسمه بدري » .. الرجل « أبو قرون » على وشك الوصول.. ملهوف على إيه وهي معصمصة زي عصا النقارية،ليس لها بطن ولا صدر.

ولم يرد كال ، مصدوما مذهولا ، لحظة حلوة تلاشت كدخان سيجارة .

ومن الصعب تعويضها ، انها امرأة عاملة ، تريد المزيد ، لا ترحب بالأولاد الذين لا يكسبون .

على ناصية القهوة كان يجلس فتوح الذي تمطل تاكسيه فجأة . كان يرتدي بذلة لامعة وحذاء أحمر وكرافته خضراء،طاووس لا تليق عليه الأناقة ، وجهه يلمع ، وقال جابر تاجر الحشيش وكال يقترب :

ـ كمال يظهر على وجهه الانهاك ، وفتوح يلمع وجهه من تأثير المكسب .

قال فتوح لكمال :

ـ عرفت تفوى (الدنبارة) .

ولم يرد كمال .. كان لا يريد أن يتكلم .. أول مرة يشعر باغماءة خفيفة . استغرقه العناق والرقاد حتى تمنى الموت ...

وهبط على الشلة خليل الفص بوجهه المهزول القبيح الممتلىء بالبثور ووراءه بعض تجار الحشيش الذين يتعاملون مع جابر .

وتوالى الصراخ على الدنب ليلبى طلبات الجالسين ، شاى وخمسين ، بورى ومعسل ويانسون .. والساعة تدق الثانية عشر .. انتصاف الليـــل .

وينتقل خليل الفص إلى جوار كمال يشكو له همه ، البوليس كشف كل خبايا (نشالين السكة) والأسورة النحاس أصبح لها رائحة مفضوحة .. كمال يجتر فى هدوء ذلك الألم الذى تركته فى نفسه لحظة وداع زينات وإحساسه بالصغر وهى تأخذ الجنية ، تقلبه فى يدها وتقول له بوقاحة غير مصطنعة :

هذا لا يكفى لمشاتنا نحن الاثنين .

وفتوح يشرب (البورى) فى هدوئه الغريب ، يستجمع فى ذهنه ما وصل اليه المدخر ، ثلاثمائة جنيه .. رويدا ، رويدا ، وأشـــترى تاكسى ملكا لى .. لا زواج ، لا بيت ، لا فرح لأختى نظيره قبل أن

أبلغ المراد .. ثم انتقل من الحجرة الحقيرة فى الوكالة ، سيكون لى شأن مثل كال بالضبط .. ومن بعيد يترامى فصال جابر مع تجار الخيش الذين يتقاسمون الربح والكلمات ، ولا تهمهم رطـــوبة الليل ولا الرزاز الذى يأتى من السماء .. وتتناثر كلمات غريبة من تجـار الخيش ، الخيش التلتاوى والهندى ، سكر نمرة واحد . إذا كان عندكم كمية نشتريها فى البداية ، خيش الميشمش لا يطلبه سوى مهندسو «الديكورات ودالفاوبين» ..

ولا يطيق كال هذه العبارات ، يصعد الملل إلى يافوخه ، يقف فجأة ويترك المكان وراء خايل الفص ويقول الفص لفتوح :

ـ ألا تأتى معنا ...؟

ويهمس الفص فى أذن كال : لم لا تذهب معنا نصطاد أحد السكارى فى هذه اللحظة من شارع الفجالة ، الخمارات على وشك التشطيب ، هناك تجد الخمارات بجانبها صور للمسيح ورهبان فى أردية زرقاء وحمراء وصلبان ، كل بجانب الآخر بدون أى فواصل ..

ـ هل نذهب ؟ ..

ويتراجع فتوح ..

ويقول كال : لنقتسم ما تكسبه أيدينا .

ويمسك الفص من قميصه ثم يعود يقول فى رقة :

حتى أستطيع أن أشبع هذه (الدنبارة) التى لن تشبع ، ولا أعرف كيف أسوسها . .

وفى خطوات بطيئة ، وفى طريق الفجالة المظلم ، الغارق فى السكون ، لمحات ، شظيات نور تظهر من الزجاج الأزرق تبشر بأنه هناك ما زالت محلات تبيع الخمر وتبيع المغامرة ، البوليس مختف تماما من الشارع ، أحدهم يجلس فى خمارة ، يشير اليه كال بفرح وهو يراه ..

كال لم يرض أن يذهب قبل أن يشترى ربع روم ، ولم يستطع الفص أن يشرب نصيبه خوفا من أن يتقيأه قبل حدوث المغامرة ، وبالتالى يصيب كال بالعصبية والهياج . لأول مرة يرضى كال أن يخرج لهذه المغامرة .. ولولا اطمئنان الفص لجسارة وذكاء كال ما أخذه معه إلى العمل .. كال لا يعرف أسرار اللعبة جيدا ..

وأشار كال إلى رجل ترك الخمسين ، يرتدى بدلة مميزة بجاكته طويلة ذهبيا ، يسير مترنحا ، فى حركته شبه إغماء ، رقبته تتحرك يمينا ثم يسارا ..

يقتربان منه .. كال يسأله :

- كم الساعة ؟ ..

الرجل ينظر فى استغراب ويحنى رأسه بصعوبة إلى معصمه ، الرجل يحمل فى يده راديو ترانزستور .

كال يعاود السؤال والرجل يرد بصعوبة دون النظر إلى الساعة ، ويسأل كال عن شارع « السكاكينية » ؟ .

والرجل لا يرد .. ويلتصق كال فى سيره بالرجل .. ويهبط الفص وهما يتحركان على ناصية شبه مهجورة ، وراءهما خراب وأكوام من

التراب ، و بمطواه حادة تلمع فى ظهر الرجل .. يتم كل شيء .

عاد الشابان ، كمال يغطى الراديو الترانزستور فى جريدة الجمهورية التى كانت قد ظهرت ، والفص يحمل الساعة والقلم الحبر ومحفظة بها جنيهان وورقتان صغيرتان . ترك له البطاقة والقروش التى فى جيبه ، رفض كمال أن يترك الرجل معدماً تماماً أو منفضاً كقول خليل الفص .

كمال يحسب الحسبة — يجب أن آخـــذ خمسة جنيهات — يقول للفـــص :

— لا تغش فى الحساب أو البيع . . وإلا قطعت دابرك وحرمتك الجلوس على المقهى .. خليل الفص يتحرك بصعوبة فى هذا الليل ، كمال نشط ، يشعر بسخونة فى جسده ، مغامرة مثيرة انتهت سريعاً ، الرجل خاف وانهار فجأة وتركهما يبحثان فى جيوبه ، الرجل كان له غرض خفى سهل لهم مهمتهم . .

ويقول كمال فى سخرية نشطة للفص وهما يقتربان فى سيرهما من المنطقة :

— ستنام الليلة مع من ؟ ليزا أم فلة . ؟

ويغضب الفص ، ويكاد يشتم فى زرقة الليل ، لكنه يتذكر قبضة كمال التى تحركها له فى الظلام . .

يتحرك النائمون تحت الأغطية والستائر وتنبح الكلاب على الغريب وتبدأ أصوات الديوك فى الظهور أو الاعلان عن ظهور فجر جديد .. فجر ممل معاد حقير .. لن يزيد أو ينقص عن الأيام الماضية . .

يتذكر كال طفولته الشقية المدللة، كم كان أبوه يحبه وهو صغير قبل أن يأخذ أخاه كل الحنان والأفضلية والشعور بأنه سيصبح رجل العائلة المسئول، وأنه الوريث للمصنع والورشه والدكاكين والعمارات.

عند قبة القاصد المجاورة لوكالة قايتباى .. يفترق الصديقان، كال يفترقه إلى منزله بجانب الربع الذى تسكنه بسيمة، وخيل الفص إلى كفر الزغارى.

الشمس تبزغ من المشرق، وهو يقترب من الكفر .. حمام يطير .. حمار يرقد بجانب عربة قمامة، تظهر أقواس المقابر، نساء جالسات أمامهن ستارة سوداء، يعجن فى الفجر، رائحة ترابيع الفرن تعبق الجو ..

إمرأة تزعق على أولادها ليستيقظوا، جارتهم فى السكن، لها أولاد يعملون فى مدبغه بعيدة عند العيون، المسافة طويلة والأقدام تستغرق وقتا للوصول ..

ويدخل من القبو، الحجرة واسعة، أمه تنام شبه صائمة، وجهها متغضن، جسمها مكور تحت البطانية السمراء، ظلت تعمل بمين عاما ثم مازالت تحاول أن تسد رمقها بالمرور على المنازل والمصانع والمحلات تطلب إحسانا — نصف جسمها مكور إلى الامام لا يرشدها سوى العصا، والكلبة « ليزا » أحيانا — ابنتاها تركتاها عندما شاخت واستقلتا بحياتهما، لا يعرف أحد إذا كانتا متزوجتين أم لا .. قريبتان من المكان ولكنهما لا تزورانها أبدا ..

وفرد مرتبته، وأسرعت كلبته الحبيبة ليزا .. ورقدت قباله

على الفراش . . وعندما بدأ يشد البطانية على جسده وعلى جسد كلبته الحامية اــيزا التى يتندر بها أهل الحى والسبب فى ذلك كله كمال وحكاياته الغريبة عنه وعن عشقه للكلاب .

وبدأ يمسح بشفتيه على شعرها وأدار الكلبة لتكون فى حضنه ، ولــيزا مستكينة راضية وألقى نظرة سريعة على أمة ثم غطى نفسه تماماً بالبطانية .

. . . .

وبعد لحظات ، غاص الشبح النحيف فى النوم . . وفى نفس اللحظة تحركت الأم بجسدها المتكور من تحت الغطاء وقالت :

— هل عدت أخيرا ياولدى ..؟

* * *

(٧)

وراء الحائط الخلفي الأقرب عدة محلات تعمل في هدوء، مخبز للعيش يغذي المنطقة، أجمل وقت للعيش الساخن في السابعة صباحاً والثانية ظهراً . مدخل ضيق وصالتان، صالة للعجين، وصالة للخبيز، حائط قصير ملون بالتراب الأسود عليه بصمات يد فاتحة، وطاقتان أحداهما لخبيز العيش والأخرى للنلدين، أمامها يقف الخبازون بالأذرعة الطويلة من الخشب (البراوى) يخرجون الخبز الساخن الذي يلمع وجهه بيقع حمراء .

والدكان الثاني . . دكان عجوز فوقه بقايا منزل ونوافذ مكسورة وخرائب، داخل المحل مستطيلان وكوران أحدهما عاطل، يستعمله خليل للفص في تخبئة المسروقات، والكور الثاني لتسييح المعدن والفضة والذهب النادر .

وذلك حتى يتمكن «بندق» من قبض أجرته اليومية الزهيدة.. كل كيلو معدن بعشرين قرشاً . . وبندق هذا شاب رقيق المظهر ذو وجه وسيم ولكنه مغطى بالتراب من تأثير استعمال المنخل «مهزة التراب» طول النهار، وبندق معروف في الحي بأنه خبير التراب الأوحد، في الصباح يحمل الشوال على ظهره، يمر على محلات خان أبو طاقية يبحث في المخلفات، يخزن في الشوال الحجارة المحترقة الناتجة من سبا كة المعادن ..

وعندما يعود بها إلى المحل يبدأ فى دق الحجارة فى هون خاص ثم يبدأ فى نخل التراب ، وعندما يتبقى الكثير من المعدن الأصفر أو الأبيض فى المنخل ، يتم تسييحه فى الكور الصالح ويقبض الأجرة .

أمنية بندق الوحيدة، الزواج، ولكن من أين يأتى بالمال اللازم ؟ إن الذى يأتيه أولا بأول يذهب به إلى السبق ليخسره ، عندما يكسب يشترى أحذية وجلاليب جديدة وخواتم ذهب ، وعندما تضيق به الحياة ، يرفض كل ما اشتراه ويقول « ربنا غضبان على » ويبيع الذى اشتراه بربع ثمنه ويعود إلى حالته الاولى بجلبابه الممزق الأسود ووجهه المترب يجلس وراء الهون أو وراء المنخل ..

وفى صباح هذا اليوم . . مرت « أحـــلام » على دكان بندق . . وأعطته خطابا أزرق عليه قطرات من عطر (الأحلام الرقيقة) ورجته أن يقوم بتوصيلة إلى « كمال » — لا تستطيع أن تمر أمام مقهى الدنف التى يجلس دوماً بها حتى لا يظن بها أحد الظنون . .

وبندق يعرف حكاية حبهما من بدايتها حتى اليوم . وهو متعاطف معهما . . ويتعاطف مع جميع المحبين والعاشقين وأمنيته أن يصبح محبوبا وعاشقا . . وأن يتزوج وأن ينجب .. ولكن يا عالم . . ياهوه ماذا أفعل، والسبق فى دمى .. هل تستطيعون أن تستغنوا عن سيجارتكم أو عن البورى الخاص بكم والعسل اللزج؟ .. هذا مزاجى ، ومتعتى الوحيدة ، أريد طبيباً يعالجنى ولا يأخذ سوى دعوة بالستر . . وعدم وقوف الحال به .

وعندما يتسلم كال الخطاب .. يجد أربع كلمات مكتوبة .. أريد أن أراك فورا ..

عندما تقابلا .. قالت أحلام وهما يتجهان إلى الطريق الصاعد ناحية مرتفعات المقطم :

- هل سمعت أنهم سيهدمون الأقمر ..

- كيف ..؟

- واجهته تشققت ، هناك هبوط فى أرضيته ، يخافون منه .. ويقولون : أنهم سيبنون مكانه داراً كبيرة ونادياً .

- لا أصدق ذلك .. لا يتجاسر أحد على فعل هذه الفعلة ..

- ولكنى قرأت خطابات صادرة وواردة تمر على أحيانا ، هناك اختلافات حول تاريخه وحول هدمه الآن أو التفكير فى أصلاحه ؟

- لا أصدق ذلك .. إنك تهرفين وتسيئين الظن ، لا يستطيع أحد أن ينقل حجراً واحد منه ، هذا لا يمكن أبدا .

- حتى لو أصبح غير صالح ؟

- لا تقولى ذلك أبدا .. عليهم اصلاحه ، هذا الأقمر ليس ملكا وحدنا ..

لحظة صمت ..

- قالوا أن أعمدته تشققت ، وأن تيجانه تكاد تهوى ..

غضب شديد فى العيون .

- بعدنا عن مشكلتنا ... مالنا وهذا البناء ؟

- انه مشكلتنا الآن .. لا مشكلة لى أولاً إلا هـــذا الأقمر ، كم لعبنا عنده ، كم حلمنا بجانبه ..

ـ وذهبت الأحلام والأمانى .. وأنت الذى تقف سدا تهدمها قبل أن يهدموا حجراً واحد منه ..

وتحركا فجأة ناحية تلال المقطم .

ـ أنت لا تفهمينى .. إنى أبحث عن شىء داخل نفسى .

وبعيون قطة نظرت اليه ، أمسكت أصابعه ، توسلت اليه أن يستمرا فى السير حتى لا تراقبهما العيون القابلة .

فى الطريق ، قابلتهما عربات فارهة ، ورجال ونساء فى أحضان بعضها ، شجيرات نحيفة تظلل الطريق ، تلقى بظلها على الأرض الحجرية .

قالت له .. عندما استراحا فى المقهى الهادئة التى تطل على المساكن والطريق الملتوى ..

ـ أخوتى يصرون على الزواج الفورى .. الرجل متعجل ومستعد لكل شىء ، ولدفع الثمن الفورى ، لا أجد سبباً للرفض .. أخاف أخوتى الرجال ، إنهم يؤدون دور الوالد ، أمى تقول : يجب على النسوة أن يكون لهن رجال يشكونهن ، نخافهم ، نحــترمهم ولكنى لا أطيقه .. لا أطيق الرجل .. الرجل كريم وطيب ولكنه عجوز .. أحتقر شيخوخته ، والشعر الرمادى النابت على خديه وذقنه ، وكلماته الهادئة البطيئة ..

صمــت ..

ـ هل حلقت شنبك الرفيع النابت..؟

ولم يرد كال . . كان سارحا فى الافق .

— وجهك الاسمر أصبح أجمل وأنضر ، بشرتك قوية فتية ، أريد أن أطوف بكل مسامها . .

أحبك . . لو تدرى كم أحبك . أحلامى كلها عنك ، لا أحتمل ان أكون لاحد غيرك .

وقال كال أخيرا . . قاطعاً الصمت الذى يخنقه :

— لماذا لاتتزوجينه؟إنه رجل غنى،ومرضوعنه من اخوتك الرجال الذين تخافينهم ، وأمك سعيدة بهذا الزواج .

— ليست سعيدة .. انها خائفة على .. خائفة أن أبطش بنفسى أو أن أخون زوجى .. انها ليست مطمئنة لهذا الزواج .. إنها تباركة لاجل المظاهر والإحساس بالعظمة التى جاءتها قبل أن تموت، ولكنها ليست مستريحة داخليا . .

— ولكنك لن تكونى سعيدة معى ، ولن أستطيع طلب يدك .

— ألم تقل أنك ستدخل الإمتحان هذه السنة ؟

— ولو . . سأدخل الامتحان ، رغبة منى فى امتحان الاساتذة الذين يضيعون وقتهم وفلوس أبى . . ولكنى لن أنجح مثل كل سنة . . لاحاجة بى ولارغبة فى التعليم . . أخذت مايكفينى . .

— والمصنع . . لماذا لاتعمل فيه . ؟

لاجد نفسى فية .. أجد هناك أسلاكا شائكة . . وأناسا لا أحبهم

وأخى قد أخذ الفرصة أو الحظوة ، فلم يعد هناك مكان لكلينا . .

العمل لايحتاجنى . . لاأريد أن أجلس على مكتب وأراقب فتيات أو أولادا صغارا ، أو أراقب ماكينات جديدة اشتراها أبى ترضية لأخى ، ماكينات حديثة تعمل بالكهرباء .

لاتعرفين . . كم أحس هناك بالضياع ، ليس لى جذور أو سيقان ، ولا يوجد أمل فى أن تنبت لى أوراق أو أزهار . .

— وهل ستستمر هكذا دائما ، تمارس الجلوس على المقهى . ؟

— وفى الظهر فى البوظة ، وفى المساء فى جلسة خاصة أدخن المخدر وأحلم بأشياء بعيدة التحقيق . . العمل سيقتل أحلامى . . أريد أن أرى الحياة بنظرة المزوى ، المزوى ، المتأمل للحياة . . أبحث عن رؤية جديدة ، والعمل والتحصيل سيقتل الرؤى . .

وقالت أحلام بلهجة ذاهلة :

— هل يمكن أن يحدث هذا لنا . . كيف نتعايش إذن ، وما هو المستقبل بالنسبة لنا . ؟

— ستصبح الحياة أفضل وأمتع عندما أعثر على رؤيتى الخاصة . .

— تركتك أياما قليلة . . وعدت لى بعدها إنسانا خياليا . أحلامى كلها بيت حجرتان وصالة ، طول الليل تصبح ملكى ، أحرسك ، أراك ، حياتى تصبح محورها أنت . .

هذا حلمى الكبير العظيم . . ولكن من الصعب تحقيق الحلم الوحيد وأنت تتحدث على هذه الصورة معى . .

وقال كال مبتسما ، محاولا أن يزيل العبوس البادى على وجهها .

— أنت تبحثين عنى ، وأنا أبحث عن الأقر . .هل حقيقة أنهم سيهدمونه . ؟

ولم ترد عليه . أخذت أصابعه ، قبلتها ، ثم أعادت تقبيل الجلد بين الأصابع.

— لاتتركنى بسهولة ، ، ناضل من أجلى مع أبيك ، مع أمك ، ولكن لاتتركنى لرجل عجوز كريه لاأحس به . .

لاأريد أكثر من تقبيل قدميك . . أحبك منذ زمن طويل ، ومازلت أحبك .

الغريب أن حبك لم ينته كما كانوا يقولون . . الايام تمر على وأزداد تمسكا بك ، ولكنى لاأستطيع أن أتغلب على الخوف ، وأرفض رغبة أخوتى ، الرجل سيدفع مهرا كبيراً . المبلغ خيالى والثمن مغر . . هل أساويه .؟

كان مغرم بالصمت والتأمل . .

— أريد أن أعود إلى المقهى والشلة . .

— ولاتريد أن تعود لى .؟

— سأعود ولكن من الصعب أن نقتنع . . لا اعرف ماذا أريد . . أنا فى مرحلة عدم المعرفة . . اشك فيما أريد . . أريدك أحيانا . . وقد أريد امرأة أخرى (ودار فى خياله شبح زينات وهى تحتقره عند وداعها له) ـ وأريد المصنع ، وأكره تشغيل الأولاد الصغار . . أريد الحياة وأكرهها . . . . احتقرها فى صورة أبنائها . .

أريد أن أجلس كثيرا على المقهى ، وسط شلتى ، أحلم بهم وأنا معهم ، تائه متطلع إلى الأفق ، حجارته القديمة ترفعنى دوما . أشعر بأنى سأصبح نِدًّا متحككا فى كل شىء ، لى هدف واضح أرسمه على الصخر .

— أخاف عليك من السهرة الخاصة ، ومن المخدر ومن هؤلاء الذين تخالطهم . .

إنهم السبيل إلى معرفة نفسى . هم الخليج وهم البقعة اللزجة النشطة القوية . سأتعلم العوم ، وسأتعلم القفز وأصبح عملاقا . .

— أحبك .. عيناك هما كل أملى . . أريد أن أدهن شفتى بجلدك ، الجلد حول الأنف ، والجلد الرقيق عند الشفة العليا . .

— لا أريد الفراق . .

— هل حقيقة تريدين ذلك . . ؟ وعملك الصباحى وأمك وأخيك الذى يعيش معكما والشارع والحارة . . حقيقة ألا تريدين . . ؟

ضاقت السماء ، وقتل الأصدقاء الأحياء ودفنوا فى القبور ، ومازلنا نسير ، نسير مسرعين ، نكاد نسقط من السرعة والنشاط . .

وسارت معه . . تحت تأثيره ، لتشاهد الأفق وهو متألق ، قد لا تراه ثانية . . هناك نبت حبهما الذى خاب عندما كبر . . وعندما استطالت الشجرة لتثمر .. جاء الشىء الخفى الذى لا تفهمه والذى يغطى كمال بقتامة تجعله صعب الفهم ..

• • •

(٨)

متجاوزا عدة ساعات بعد الظهيرة ، فتح الفص عينيه المفعمتين النوم ، الحجرة معبقة برائحة البخور المعتاد والبول . عندما تستيقظ أمه ، تشيع البخور فى الحجرة الواسعة .. تنام على فرشة فى نهاية الحجرة ، وهو على فرشـــه فى بدايتها . . يوجد فى الحجرة دولاب عبارة عن صدر خشب وجوانب وخرقة قماش تغطى الواجهة ، بجانبها حجرة « جوزة » ، لا يوجد مثلها الآن وموروثة من الأب الذى عشق المخدر حتى قضى عليه ، وطشت صغير وآخر كبير ووابور جاز وعدة حلل فوق نضد مستطيل قديم معفر منآكل الدهان ، أخذته الأم من احدى السيدات الكريمات اللاتى كانت تعمل عندهن .

ونظر خليـــل الفص إلى فرشه الأم التى حركتها لتكون فى مواجهة النافذة ، مسكينه هذه الأم ، تتبول على نفسها أثناء النـــوم كالأطفال ، ثم تخشى غضبه ، فتفتح النافذة ليدخل الهواء الذى قد يقتله فى يوم من الأيام ولا تنسى أن تحرك رائحة البخور فى الحجرة ..

وبعد أن غسل خليل وجهه فى الحوض الوحيد الموجود بالحوش . وارتدى حـــذاءه الوحيد وبنطلونه القديم والبلوفر الأصفر المهمل الممتلىء بالثقوب عنـــد الابط وفى أسفل الصدر . غادر الدار حيث الشمس الناصعة تملأ المكان بسحابة برتقالية ، يغمض الناظر عينيه

عندما يفاجأ بها .. أمه تجلس على الرصيف فى الحارة المسدودة مقوسة الظهر ، كأنما رأسها واقعه فى حجرها ، بجانبها عصاها ذو المسند البنى، فى قدميها حذاء طرى جديد اشترته بنفسها، ترتدى جلبابا أسودا واسعا ليس قديما ، على رأسها شال باهت . لم تبتسم عندما سمعت صوته .. وجهها لم يعد به مكان لخطوط جديدة أو انفعال للفرح أو الكدر . الوجه مربعات وخيوط من التجاعيد والمسام الواضحة ونتوءات وعيون غائرة وعظام ظاهرة ولكن الوجه الابيض يحمل طيبة ورقة وحزنا تبدو الآن كمسحة قديمة، مسحة يحملها الوجه منذ زمن طويل.

نسوة يجلسن بعيدا عنها ، يقشرن البطاطس على أرضية الحارة السد ، وابور جاز أمامهن فوقه حلة واسعة بها نقطة سمن وعصير طماطم ، تنهض امرأة معروقة فى يدها صفيحة صدئة إلى البقال القريب لتشترى لتر جاز حتى لا يفقد الوابور اشتعاله الجيد .

امرأة جالسة تفرد لحافا على الأرضية ، ترفى بعض الاجزاء المستهلكة فى دار اللحاف ، طفل رضيع نائم فوق اللحاف ، جسده العارى يظهر بوضوح من تحت جلبابه ، عدة أولاد يلعبون ... ولدان حافيان جالسان ، يفتحان أرجلهما على هيئة سبعة ثم بأصابع أيديهما الصغيرة ، يكونان شبرين فوق الأرجل ويقفز بقية الأولاد من فوق الارتفاع المزعوم .

خليل الفص ، يجلس بجانب أمه ، الكلبة ليزا تحرك ذنبها برقة شديدة وتيه ، تنام عند قدمى الفص الذى يأخذ رأسها فى حجره .

الأم لا تتكلم .. تشعر به .. تنظر نظرة خفية ثم تتوه فى الفرجة حل الأولاد المتقافزين .

تتصاعد من الأم رائحة غريبة تنفذ إلى أنف الابن .

يقول الفص لأمه :

لماذا أنت صامتة ؟ .. لم أتأخر أمس أكثر من المعتاد .

تلتفت الأم اليه بحدة وهى التى يلوح عليها عدم السمع الجيد وعدم الاحساس بالحياة التى حولها .. تلتفت وتقول بصوت واهن متحشـــرج :

ـــ سائر فى الطريق للنهاية .. مثل أبيك لا يرجى منك فائدة .

تصمت فجأة .. حتى تسترد ذاكرتها ..

ـــ لماذا لا تـــتزوج .. أخطب لك أكثر من مرة ولا تبقى عروستك أكثر من شهرين ، ثم مم تخاف .. كنت أظن أن الزواج سيحل مشكلتنا .

ويقول لها خليل الفص متماسكا متضاحكا :

ـــ أريد أن أتزوج الآن .. هل معك قيمة المهر .

ولا تفهم الأم وتقول :

ليس معى الآن ، كان فى الماضى ، ليس معى سوى أجرة دفنتى أخفيها فى صدرى ، لا يعطينى الا القليل قروشاً قليلة ، نشترى بها غداءنا ونستتر فى الحجرة ..

فى الماضى . . عندما كنت أعمل ، كنت أود أن أزوجك وأفرح بك ، وأرى أولادك ، ويصبح لى احفاد يقولون لى «ياجدة» .

ويعود خليل الذى يشعر «بالخجل» الرائع الذى اكتسبه أمس من الرجل المخمور فى شارع الفجالة ، يعود ساخرا ، ليقول :

ـــ ولكن أليس لك احفاد من ابنتيك ؟

ـــ سميرة وفتحية ؟ عليها لعنة الله ولعنتى الى يوم القيامة .. هجرتنى البنتان .. أصبحتا فاجرتين على آخر الزمن . . لا يسألان إلا عند طلاقهما أو عندما تغضب إحداهما من زوجها .

ويرتفع صوتها الضعيف فجأة ، وتنظر النسوة جميعاً ، يردن أن يقتربن ، ليسمعن أكثر وليتندرن بقية اليوم ، ولكن وجود خليل القص يخيفهن وهو العصبى الحاد . . .

ويتحرك القص ناحية الحجرة ، يتناول غداءه أو افطاره كما يهوى أن يسميه . . (وذلك قبل أن يحمل مكسبه فى الليلة الماضية ملفوفاً فى ورق الجريدة) ويخرج إلى الهواء النقى ، تاركا أمه حبيسة جلستها حتى تخمد أشعة الشمس ، وترق نسائم الغروب ، فتقوم متحاملة على عكازها قاصدة ناصية باب الفتوح والجمنية تستعطف أصحاب المحلات والوكالات والبيوت القديمة ، لعل أحدهم يعطيها قرشا أو قرشين . . ولا تعود الأم إلا فى ساعة متأخرة من الليل ، فالسير يتعبها .. وخطواتها بطيئة مترنحة ، وساقاها ضعيفتان لا تساعدانها على الحركة .. عندها شلل لم تبرأ منه تماما . .

* * *

(٩)

فى المساء جلس فتوح يشرب « البورى » بجانب فرشة بسيمة التى تعرض البرتقال والموز والاقفاص والحشيش الأخضر المنسدل .

يجلس حول بسيمة أولادها الستة ، ابنها الذى يعمل مع أخيها عاطل منذ أسبوع ، ولا يريد أن يبدأ عملا آخر ، غاضب مع خاله ، ولا يريد أن يجرب حظه فى عمل آخر ،وأصبح عليها أن تطعمه بجانب أطعامها لنفسها ولطفلها الشيطان الذى مازال يتغيب يوما أو يومين ثم يعود . .

ويقول صبى المقهى متباسطا مع بسيمة :

ـــ انت أخذت « القعدة » عندك والا إيه ؟ . . النهوه شطبت وانت فتحت قهوة بجانبك .

ويدافع فتوح عن بسيمة بأنهم يطلبون الطلبات ولكن على الجانب الآخر ، ثم يزعق على صبى المقهى العجوز عندما يصل الى بوابة المقهى :

ـــ « ولعاية » ياعم سعيد . . النار انطفأت .

وتتغامز بسيمة عندما يصل عم سعيد مرة أخرى اليهم بالفحم المشتعل والماشة . .

ـــ تتجوزنى ياسعيد، وأشربك زجاجه بيرة كل يوم على حسابى ؟ . .

وعندما ينظر اليها سعيد مستفسرا : تبدأ فى الغناء بصوت رقيق ناعم ليس طبيعيا (وراحت البنت لابوها ، وقالت له يابا . وأنا فى السوق يابا بشترى الحاجة ، جه الهوى يابا لفح التوب بين الفخد والحاجة). ويصل كال فى الوقت المناسب ويقول عبارته المشهورة « مــدد ياسيدى الدهكى . . »

وتكتمل القعدة ويأتى جابر تاجر الخيش ، ويظهر الغضب فى عيون عم سعيد ويقول لبسيمة : سيضيعون لك الليلة ، ولن يشترى منك أحد وأنت تجالسين الفتيان ، سيخاف المشترون ويبتعدون ليشتروا من ناصية الشارع الثانى .

وتهز بسيمة كتفيها وتنظر إلى الأقمر الواضح ثم تستمر فى الغناء من جديد . .

ويحكى كال لبسيمة عن الحديث الذى سمعه عن هدم الأقمر منذ ساعة عند مقابلته لفتاته أحلام . . فيقول لها :

ــ يابسيمة . . مارأيك لو أزالوا هذا الأقمر . . وبنو بدلا منه مبنى عريضاً يأخذك أنت وأولادك والجيران والاحباب والاصدقاء.

ـ ولدت وأنا أراه، جعت وأنا أراه ، ماتت أمى وسرت بجوانبه ، تزوجت وخرجت مع عريسى أمامه ، وأخيراً عدت لاجلس أبيع أمامه .

ولم تهدأ بسيمة حتى قال لها كال أن هذه اشاعة سمعها ، وأنه من المستحيل ان تكون صحيحة ، ونظر إلى الاقمر ، فراعه أن التشققات موجودة فعلا فى الصرح العظيم وأن المبنى يميل ناحية الدرب الاصفر..

أول مرة يرى الجامع بعيون مستفسرة ، هل حقيقة سيأتى صباح غد لا يرى هذا الصرح .

وأصرت بسيمة أن تستفسر عن الأمر ، قلبها يحدثها بشيء رهيب قد يحدث للذى أمامها والذى يظللها والذى يعطيها الأمان والستر . تصبح عليه كل يوم قبل أن تذهب إلى روض الفرج .. عندما تدعو على أحد أو تدعو لأحد أولادها أو لنفسها ، تنظر ناحية الأقمر ثم إلى السماء وتبتهل إلى الله أن يستمع لها ولو مرة واحدة .. وان يبعد عنها المسكنة والمذلة وأن يجملها بالستر ، ويصبرها دوما . وأن يبعد الضلال عن بنتيها وأن يعيد ابنها الغائب وأن يعطيه العقل المبصر الواعى ..

وفى حماس إصرارها ، أرسلت أحد أولادها ليستدعى فؤاد حراز من منزله ، ليترك دروسه ويأتى .. يأتى ومعه كتابه المشهور المقطوع جلدته ، ذو الورق المقوس ، الملون بالتراب والقدم .. أريد أن أسمع تاريخ الأقمر ، أسمع شيئا عنه ، لا يمكن أبدا .. لن يستطيع أحد أن يقترب من الصرح .. الحجارة ستقع على رؤوس الهادمين . ستخترق الأعمدة الأجساد الفاجرة التى تقترب منها .. كل بلاطة صلى عليها مؤمن ، ستنزل اللعنة على من يحركها من مكانها .

أوصت الولد ألا يتأخر .. جلس الجميع يتفرجون على حماسها ، يتندرون فى همس على تحركها وثورتها ، ماعدا كمال الذى يجلس فى صمت غريب لم يعتادوه منه

وعندما يأتى خليل الغص ، ويجلس بجانب كمال ،

ويعطيه خمسة جنيهات ويشير إلى لوكاندة المصباح الأصفر وبالذات إلى نافذة زينات . ينظر كال له بقرف وغضب .. ثم يدس فى يده المبلغ الذى أعطاه له ويقول بكبرياء مطعون :

ـــ لا أريد شيئا منك .. كانت غلطة كبيرة منا أن نسرق فقيرا ..

ولا يستطيع خايل الفص أن يرد، ينظر نظرات خائفه وجلة ناحية الجالسين متمنيا الا يكون أحد الجالسين قد سمع عبارة كال الأخيرة فبالرغم من أن خايل الفص سيرته معروفة إلا أنه أحيانا ينتابه الإرتباك إذا صارحه أحد مباشرة بالعمل الذى يقوم به وخاصة إذا كانت مغامرته مع فقير مثلهم ..

وبدت عيون حاقدة كئيبة .. ثم تحركت الأقدام تعبر الشارع متوجهة إلى باب الفتوح ثم إلى كفر الوغارى مارة فى طريقها بالمقابر ، سيعود مبكرا الليلة واحدة .. لتهنأ أمه بعودته المبكرة ..

* * *

جاء فؤاد حراز مهرولا ، ، مرتديا بيجامة النوم، ومعه الكتاب، يسأل بقلق عما حدث ، وهل حقيقه أن الأقمر سيهدم ؟ ومن سيهدمه ؟ وهل يوجد أحد يستطيع ذلك؟.

وجلس فؤاد بجانب كمال ، بسيمه تستفسر، تريد أن تلتهم الكتاب، أحك لى عنه ، أريد أن أعرف كل شىء عن الاقمر، كيف صنعوا هذه الزخارف التى تشبه فطيرة اشتريتها ازوجى يوم القرافة ؟.. كنت احضر فيه مع أمى قبل وفاتها ، حضرة ، كل يوم اربعاء ماتت أمى ومات غيرها كثيرون .. ومازال الأقمر باقيا .

— بناه الآمر منذ أكثر من الف سنة ، كان مكانه علافين وسواقى ومرابط للخيل وبئر يسمى بئر العظام ، وبركة ماء — ثم هدم كل شىء ليبنى أو ليشيد الأقمر .

بناه الآمر بمساعدة المأمون .. ثم قتل الآمر المأمون بعد بنائه بثلاث سنوات ..

— ولماذا يقتله .. يقتلون بعضهم البعض فى التاريخ ولكن يبقى الاقمر . ألم أقل لكم أن الاقمــر سيبقى . سنموت غدا ويبقى الاقمر . يحكى الحواديت . يرانا جميعاً .

— وقيل أيضا أن الآمر والمأمون موجودان على لوح بجانب

المحراب . وقيل ايضاً انه ثالث جامع فى قاهرة المعز .

وقال فتوح بصوته الأجش .

— لم تتباكون على هذا المبنى القديم سيأخذ مكانه ربع متسع — لو هدموه سيبنون دورا كثيرة تأخذنا جميعا من جانب أقفاص بسيمة.

وزمت بسيمة شفتيها وقالت باحتقار :

— ويبنون لك جراجا يأخذ عرباتك التى ستشتريها من بخلك وتقتيرك وحبك للعيش على حساب غيرك ، وتأخيرك لزواج اختك نظيرة . هذا هو ابن الحى .. وهادم الحى والعظمة الوحيدة الباقية فيه .

وكادت بسيمة أن تشتبك فى عراك مع فتوح لولا كمال الذى قال: لنهدأ ونترك الغد يأتى بالمستخبى ... وغادر فتوح الجلسة حتى يأمن شر بسيمة فى الليلة التى أصبحت فيها سليطة وعنيدة وقادرة على الخصام والشجار حتى معه . .

يأخذ عربته التى كانت تقف أمام الاقمر . الاقمر بارتفاعه القديم المترب يحتل جزءا كبيرا من السماء اللامعة البراقة . .

ويقوم كمال متجها إلى خمارة أبو أنور ومعه « جابر » ، تاجر الحشيش وفؤاد الذى رضى فجأة أن يصحبهما ومعه كتابه اللامين الاسمر الذى ازعج بسيمة . .

* * *

قال خليل الفص لأمه الجالسة على مرتبتها : لقد عدت الليلة مبكراً من أجلك .

ولم ترد الأم ، كانت جالسة على مرتبتها ، رأسها ملقى فى حجرها ، يداها شبه مشلولتان ـــ مابك . . وأين الكلبة ليزا . . ؟

ولم ترد الأم كانت شبه مقتولة ، وكانت ذاهبة فى نوم احمق ، التصق بها يطمئن عليها . . تتنفس بصعوبة ، صدرها واضح ، ثدياها يظهران بوضوح ، آثار دم أو نزيف يطل من الجلد بجانب شفتيها ، كأنها جرحت منذ قليل ، أو اشتبكت مع أحد ، قدماها راكبتان فوق بعضها . . حاول أن يفيقها ، لاترد ، ولكن النبض يتحرك . . والكلبة ليزا غير موجودة .

كاد يصرخ . . وسكت الصراخ ، حرك يديه فى الهواء ، ولم يحس به أحد سوى زبالة المصباح البترولى المضىء فى الحجرة الفقيرة الكئيبة . طبق به جبنة قديمة وبقايا فول أخضر ، لم يتحرك من مكانه إلا فى الصباح ، صمت به الليل ، أغلق عليه بابه .

عندما أستيقظ فى الصباح الباكر . . كانت الأم مازالت تنبض بالحياة . . دموع فى عينيه ، كيف نام وتركها للذباب والجوع والليل وساعاته الكئيبة الغبية ؟ . كان يمكن ان يقتلها الليل ، وفى ساعة واحدة أو دقيقة واحدة تضيع منه . . ويضيع منه آخر هدف للحياة وآخر أمل . . كان من الممكن أن يحدث هذا .

وقام، رش على وجهه بعض الماء، وخرج يبحث عن جارة عزيزة تحكى له ماذا حدث لأمه التى لاتنطق . . مازالت جالسة فى مكانها، ثقيلة لايستطيع أن يحركها بمفرده .

وجاءت معه الجارة، يحاولان تحريك جسم العجوز ،آخر مااستطاعا هو أن يفردا جسدها بصعوبة ، ونامت المرأة العجوز على ظهرها .

خليل الفص يسأل الجارة ثم باقى الجارات ، ولكن كل مايعرفونه أنها خرجت بعد غروب الشمس وصفاء السماء وخلوها من السخونة الحارقة ، ووراءها الكلبة ليزا التى نادرا ماتتبعها . .

وفى الليل قبل مجيئه . . جاءت المرأة محمولة على عربة يجرها حمار ، تطوع أحد المحسنين ، عندما وجدها بجوار باب النصر فى مكان مصمت يطبق عليه الظلام والوحشة، ملقاة بجانب أحد الأرصفة، الكلبة مقتولة بجانبها ، أزرار ردائها مفتوحة ، صدرها ظاهر . . تقول النسوة : لقد سرقوا المسكينه . . المجرمون القتلة سرقوا المسكينة . . كانت تخبىء جنيهات دفنتها فى منديل بصدرها . . سرقها اللصوص الأوغاد الذين ان يذهبوا بعيدا عن غضب الله .

عند الظهيرة . . بدأت الأم تفيق لنفسها . . فتحت عينيها . . طلبت ماء بشفتيها ولكنها لم تتكلم . . أعطوها ماء وقبضة عيش مبسوس . . ولم تتكلم . . يداها لاتتحركان ، رجلها الشمال لاتتحرك تبولت على نفسها أمام الجيران ، وذهبت فى نوم مرهق .

وذهب خليل القص يبحث عن طبيب . .

وجاء طبيب وكتب روشتة غالية ، لايستطيع أحـــد فى هذا الزمن أن يلبيها بسهولة ، وأحضروا لهـا بعض الحقن ، وتركوا باقى الادوية ، وقال الطبيب ، قد تمـــوت غداً وقد تمـــوت بعدأسبوع وقد لاتمـــوت ابدا . . والمرض طويل ومرهق والله يعينكم عليه صدمة شديدة فى هذا السن ، معجزة أن تبق بعدها .

وتمنى الجيران لها الموت والراحـــة ، وتمنى خليل لامه الراحة والبقاء .

* * *

(١١)

وضحت الاشاعة وتحققت ، جاء رجال فى عربات الآثار ، وقفت فى خط ، الشـــارع لا يأخذ العربات بالعرض ، نزل بعضهم وعاين الاثر من الخارج والداخل ، جاء فتيان معهم أمتار قاسوا بها طول وارتفاع الجامع ، مع أحدهم كراسه طويلة يحصر فيها عدد النوافذ ، المقابض ، الأعمدة ، العروق ، الباكيات ، وحنفيات الماء والحصر الموجودة . .

علمت بسيمة وتولاها الوجوم ، وعرف كمال وتولاه الضيق ، وعرف فتوح وتولته اللامبالاة . وفى الظهيرة ، وضحت الآلام وانتشرت الهمهمات ، وفى العصر دار الحديث بصوت مرتفع ، وبدأ الناس فى المنطقة يتكلمون ، وقام أحدهم وجاء بعريضة طويلة ، يرسلونها إلى الجهات المختصة ، يتساءلون ويحذرون من هدم آثار الأقدمين ، وبصمت بسيمة ، وبصم آخرون .

جلس الرجال الكبار حول والد كمال ، وأغنى أغنياء الحى . . «البابيصى» له رأى عجيب يقول : لم لا يهدمون هذا المبنى القديم ونستفيد بالأرض الواسعة ، الكلام الدجل هو أن نحلم بالماضى ونشيد بالأيام القديمة ، لنا هذا اليوم وهذا العصر ، لنكن واقعيين . .

ولم تقم خناقة كما تصور كمال وشلته ، وهو يجلس بعيداً يرقب المناقشة الحارة .



فى الليل ، اقتنع الرجال الكبار بمنطق البلبيسى ... هو الوحيد الذى يمكنه أن يوقف الهدم ، يعرف النواب ، يعرف الكبار .

بسيمة كانت متأكدة أن البلبيسى سيقف معها ومع إبنه ومع المنطقة ، ألا يشترى منها كل يوم أكياس الفاكهة ، ويعرف مدى حبها لهذا الصرح .. ألا يعرف .. ألا يهتم بما تحب ، كما تهتم هى باختيار أفضل وأنضر ثمار الفاكهة له ..

الوحيد الذى كان غائبا عن الصراع والمناقشة والحوار الساخن الذى برد فجأة .. هو خليل الفص ، بعدما رفض كال الخمسة جنيهات أمس لم يره .. تساءل عنه فى سره ، ولكنه لم يذهب ليبحث عنه فى بوظة عم عمر أو فى بيته فى كفر الزغارى .

فتوح جاء يتفرج ويهدأ من المشاوير البعيدة والقريبة .. لم يبق سوى القليل ويشترى العربة التى سيحولها إلى تاكسى باسمه .. وهذه هى البداية فقط .. اشترى منذ أسبوعين خاتم ذهب ثقيل له مقدمة مربعة رائعة .

وصمتت بسيمة ، عندما علمت بالقرار ، كان الرجال الكبار يجلسون على قهوة الدهب عندما وصلوا الى القرار ، وهو الموافقة على الهدم وعدم إثارة الشغب وعدم إرسال العرائض المبصومة .. هل الكبار متفرغون لهذه التوافه ؟ توافه بائعة برتقال ، توافه طالب يرسب تباعا فى التوجيهية ، ويريد أن يتزوج ابنة رجل حافى كان يعمل دمقاول أنفار؟

قال البلبيسى هذا الكلام عن ابنه وسمعه الناس ، وقالوا .. أن الوالد غاضب على ابنه ، ولولا أمه ، لكان طرده منذ زمن طويل ، وقالوا .. أن الوالد من شدة حرصه على المنطقة ، فانه يستشهد بابنه الاكبر : . انه قطعا حريص على المنطقة وعلى خيرها ..

لم تنادى بسيمة على البرتقال أو الموز ، مضربة عن البيع (ليفسد كل ما اشتريته فى يومى ، لم أحزن على قرار الحكومة بقدر حزنى على موافقة البلبيسى على هدم هذا الصرح . ألم يولد هنا ، ألم يلعب هنا ، ألم ينجب أطفالا ترعرعوا ، وما زالوا يكبرون بجانب هذا الصرح..؟ كيف يتخلى عنا وهو القادر العظيم ، وهو الغنى واسع الثراء ، وكيف ..) ونظر لها البلبيسى نظرة صارمة من بعيد ، وقال كلمته التى حفظت بعد ذلك : هذه المرأة مجنونة أو حمقاء ، مالها وهذا البناء المتشقق ، مالها وهذا ؟ إنها لاتفهم إلا فى البرتقال وفى الازواج ، كيف تتجاسر امرأة تبيع البرتقال ، إمرأة حافية..أن تصرخ وتقول أنى أخطأت الفهم؟ .. انها امرأة غير نبيلة ، ولن اشترى منها بعد الآن..

وصمتت المرأة .. ابنها الشقى الصغير عاد لها منذ يومين ، ولم يتحرك من جانبها .. الولد مريض هذه المرة ، نظرت له وسكتت وباعت لاول مرة فى الليل كيلو برتقال حتى تستطيع أن تحضر رغيفين وبقرشين جبنة لهذا الولد الضال ، اخوته الاكبر منه يصرفون على أنفسهم ، ولا يعطون لها شيئا ، ولا يهتمون به أو بها ...

وجلس كمال بجانب بسيمة على ناصيتها . يشاهد الصرح الكبير الذى سيهدم بعد يوم أو يومين ، لا يدرى أحد بعد ..

وجاء فؤاد حراز ومعه الكتاب ..

وقالت بسيمة هازئة :

— ألق به فى النار ، لم نعد بى حاجة لكتب التاريخ .. قال البابيسى اليوم : لا تعترضوا على القرار .. إننا كبار بما فيه الكفاية والصغار لا يفهمون ..

فى فجر اليوم التالى .. جاء مقاولوا الهدم ، علقوا اعلانا كبيرا .. يمنع دخول الصرح .. لأنه سيهدم . لم يهمس أحد .. انشغل الناس بمشاكلهم أو نسائهم أو مخدراتهم .

بسيمة غيرت مكانها .. ولم تعد ترى من مكانها الجديد الأقمر أو عيونه أو ضخامته أو ارتفاعه .. ستنسى .. وليكبل قلبها الحزن واليأس .

• • •

جاء لكمال خطاب أزرق معطر بالعطر المعروف (الأحلام الرقيقة) أحلام تطلب أن تراه أمام مشهد الحسين ، أول مرة تتجاسر أن تراه في وضوح النهار ، ستراه بمجرد أن تنتهي من عملها ..

وقبل أن يفكر كمال في الذهاب . . وجد أخاها الأكبر « زينهم » أمامه ، سأل عنه في المنزل . فقالوا في المصنع ، سأل في المصنع ، سخروا منه وقالوا لا يأتي بتاتا ، جاء إلى المقهى أشاروا له عليه : تجده عند أقفاص البرتقال .

تعجب كمال من وجود الأخ أمامه ، أسرع به ذكاؤه ، دعاه على كوب شاي « وبوري » .

ولكن الأخ يعتذر في رقة شديدة ، رجاه في هدوء ان يأتي معه إلى دكانه في ربع السلسلة :

سيشربون القهوة هناك ، ويتحدثون حديثا هادئا مريا أخويا .

وسار الإثنان في هدوء ، الاخ الأكبر لا يزيد عن الثلاثين ، طويل نحيف ، في عينيه رجوله وكرامة ، لم يشاهده كمال منذ سنوات وقد نسى تقاطيع الوجه الكاملة .

مرا على برقوق والناصر وقلاوون ثم انعطفا في أحد شوارع خان الخليلي ، وصعد كمال معه إلى الربع الممتلىء بعديد من الحجرات والورش .

وفي جلسة هادئة بعيدا عن ماكينات الجانخ المثلثه ، وصغار العمال المنهمكين في تكوين الجدرات وفي صنع الحشو اللازم للخواتم . .

(م - ٦)

دخل الأخ مباشرة فى الموضوع : الفتاة ترفض الزواج بالرجل الذى تقدم لها ودفع مهرا كبيرا بالنسبة لوضعهم الاجتماعى .

وسكت الأخ كأنه يسترجع الكلمات التى سيقولها : وأنت كما تعلم لاتستطيع الزواج الآن ، الوالد كما تعلم يرفض الزواج ، وليس لك مهنة محددة بعد .

وبالرغم من أن كال كان يعرف كل هذا الكلام .. إلا أن الأخ استرسل فى الحديث : لايوجد سوى حل واحد .. أن تبتعد عن البنت ولاتقابلها .

وعندما حاول كال أن يرد قال الأخ : رآكما أكثر من شاهد عيان وأنتما تتجهان ناحية المدينة ، البنت نفسها لم تنكر ، أحيانا تهدد بأنها ستحرق نفسها وأنها ستهجر المنزل إذا أجبرناها على الزواج ..

ولم يتكلم كال .. الدور المرسوم له هو الاستماع فقط .

سأل كال نفسه وهو يرى الأخ يتركه للحظة معتذرا ، يثور فى أحد العمال لأن عيون الخاتم جاءت واسعة ..

تساءل كال فى لحظة المدنة : هل هو يحبها .. هل هو يريدها .. هل سيشعر بالألم والذنب إذا حدث مكروه لأحلام .

ولكن عندما عاد الأخ من التوجيه السريع للعامل الصغير ، قال كال فى هدوء مصطنع :

— ماذا تريدنى أن أفعل ؟ ..

— أن تبتعد عنها .. الحل الأمثل فى رأينا هو أن تتجه

اليك الآن . . إعتذرنا للرجل الكريم ، أعدنا له المهر وهداياه الثمينة.

نشعر بأسف شديد من أجل الرجل الكريم ، ولكن مستقبل الاخت أهم من كل اعتذارات الدنيا .

بدأ كال يحلم بهذه الأسرة العظيمة التي كونت نفسها من لاشيء ، أسرة متماسكة صالحة ، يقارن في نفس الوقت بينها وبين أسرته العريقة والعذاب وعدم الفهم الذي يلاقيه معها .

ويواصل الأخ حديثه :

— ولكن أرجو .. رجاء الأخ الأكبر للأصغر ، أن تبتعد عن لقائها تماما منذ اليوم .

وكاد كال يقول « ولكني سأقابلها بعد نصف ساعة » لكنه صمت .

وتنبه للأخ الذي يسأله الرد . . فقال بثبات رجولي :

— لن تسمع أبدا اننا تقابلنا أو أن أحدا يقول لك اننا خرجنا معا ..

وقال الأخ مؤكدا :

— وإذا أرسلت لك خطابا . . أرجو ألا تبخل على بأي معلومات أنت تعرف أننا من عائلة فقيرة ، وأننا نعيش في وسط شعبي متحفظ ، ولذلك أرجو أن تسعى إلى تمزيق هذه الخطابات أولا بأول ، ولا تكتب ولا ترد عليها .

وقام كال . . يشعر بأنه رجل متعاظم من الخارج ، خاوي من الداخل ، يرتدي حذاء وبدلة ولكنه لا يملك من الدخل جنيه له سمك ،

فقط سطح ، هيكل يشد هذه الملابس . .

مر على ميدان الحسين ، الساعة كانت قبل الثانية بدقائق ، أحلام في هذه الدقيقة تنظر في ساعتها ، وبعد قليل ستتحرك على الدرجات الرخامية لتقف أمامه ، ونظر إلى ساعة ميدان الحسين ،غيروا الميدان ونشروا الزرع وكدسوه حول الساعة الرأسية التى تشبه إلى حد كبير نصبا لمقبرة حديثة لها سطح مفروش بزهور لها سمك . وبدا له فى نفس اللحظة ، أن كل المحبين يرقدون تحت هذه الساعة، وأن أجسادهم تحللت وعظامهم تفككت ، ولم يبق للانسان المتبقى على سطح الحياة إلا الذكرى تعينه على مواجهة مشقات الحياة .

رأى كمال فؤاد حرازفى نفس الدقيقة التى كانت فيها الساعة تتحرك معلنة ومدوية للعالم أجمع ولسكان المنطقة بأنها الآن الساعة الثانية ، فؤاد يطلب منه أن يدخل معه مسجد الحسين ، وسط دموع لاتريد أن تتلاق ، خلع حـــذاءه على الإفريز الرخامى الجديد . . ودخل وراء فؤاد .

فى الداخل حلقة ذكر تقام وسط رواق المسجد .

فعل مثلهم ،ارتدى جلبابا أبيض وطاقية بيضاء مخططة بخطوط خضراء وانهمك معهم فى الغناء . . وسط الغناء والكلمات المعادة ، رأى الأقمر ، رأى أمه ، صوت أبيه القاطع وهو يرفض زواجه من أحلام، صوت أخيه الأصغر الذى يستأثر بكل النجاح والصيت..

وعادت الرؤية له ، وهو يرى الأقمر يهدمونه من القمة ، بجانبه

صورة بسيمة غاضبة متألمه . . ولم يكمل حلقة الذكر ، ترك أصابع المجاورين ، وخرج ساخطا ، كافرا ، والطابور الذى يليه ، يتعجب فى صمت ، ولكنه يواصل الصخب والدعاء (وعلى العقيق إجتمعنا ، نحن وسود العيون)

خيل اليه وهو يغادر المكان ، أن جميع الأعداء ، وجميع الكارهين أستيقظوا من المقابر وأنهم يجرون وراءه ، يحاصرونه ، يمسكون بتلابيبه ، وخلع الطاقية والجلباب ، ولم يأخذ الحلوى التى يقدمونها فى آخر حلقة الذكر ..

خرج متوسلا يتمنى نسمة هواء تروح عنه ، ماالذى يقبض صدره ؟ بسيمة تعرف وعندها سيهدأ . .

ولكن حتى بسيمة ، لاتجلس فى مكانها ، ابنتها تجلس مكانها ، بسيمة نائمة فى حجرتها ، لاتستطيع تحريك ساقيها . . لم تستطع الذهاب إلى سـوق روض الفرج ، الفاكهة الموجودة فاكهة فاسدة أو غير نضرة ، بواقى الأيام الماضية .

الأقز بواجهته ينظر اليه فى حنان ، يطلب الإذن فى الحديث معه ، الحوائط تتوسل ، ترجو ، لايعلمون ماذا يفعلون . . وهل أستطيع أنا أن أمنعهم ؟ . لم أستطع أن اتزوج بمن أحب . . أو أقابل من أحب ، فهل استطيع أن أوقف هدم هذه الواجهة الرقيقة اللماحة الذكية ؟ .

* * *

(١٣)

صفان من الحصير ، وأناس تدخل من كل ملة وجنس ، رجل يغنى . . عبد طويل القامة فى يده عدة كيزان ممتلئة بالمجين الخمر (قمح ، خميرة بيرة ، وأربعة أيام) الجميع فى حركة يتناولون كيزان المجين ، يبحثون بأصابعهم فى أطباق الشطيطة والفول النابت .

يدخل كمال ، يبحث عن خليل الفص، خمسة أيام وهو يبحث عنه ، فى كفر الزغارى ، وفى حارة الاوسيمة، وعلى ناصية مقهى الدانف.

فى نهاية الركن ، إنسان مهمل أصفر الوجه ، متبلد الحس ، يجلس متكورا على نفسه، فى يده كوز المجين ، أمامه أطباق الشطيطة والفول النابت،حوائط مرتفعة ، جمافره لهم وجوه مستطيلة وشرائط على جانبى الجبهه .

خلع حذاءه ، وجلس بجانب الفص الذى لم يعرفه فى البداية ، سارح فى ملكوت بعيد ، خياله ممتصر ، جسده ينتفض ، وجهه يتحرك يمينا ويسارا ناحية البخور المحترق .

قام رجل عجوز وتبول على الحائط ذى المربعات والفوانيس القديمة ، ولم يتكلم أحـــد .

عندما جاء الرجل الأسود ومعه الكيزان، أخذ كمال كوزا واحدا منه ، وطاب جرجيرا وترمسا ليذيب مرارة المجين الخمر ..

ـــ ما بك ؟ . لماذا لا تتكلم وانما تصفر وتنكمش عندما تراني ، وتكز على أسنانك ؟ .

ولم يتكلم الفص .

وحكى كال له عن أيامه الخمسة الماضية ، أيام طويلة كئيبة ، بسيمة مريضة يوما ، وحيه ترزق يوما آخر ، بدأوا يهدمون الاقر ، المنطقة محاصرة بكردون من العسكر ..

الأخ الأكبر لأحلام قابلني . ولم يرضى أبى حتى أن اتكلم معه فى الموضوع ، كاد أن يطردنى ليلا نهاه من المنزل وأنا أتناقش معه قال أخوها .. أرجو ان تبتعد عنها . . إذا جاءك خطاب منها ، أو إذا طلبت اللقاء ، فلا تجبها . . لم أقابل انسانا كريها فى حياتى مثل هذا الأخ . . لا يفهم أبى هذه الحقيقة ، إنهم أناس شرفاء حقيقيون . . الحقيقيون قليلون . .

وجاءت ضحكة خفيفة من الفص ، أعقبتها عدة ضحكات من الجالسين ، ورمى أحدهم الفول النابت فى وجوه الجالسين على الحصر .. ومال آخر وأخذ قبله من رجل عجوز يجلس بجانبه .

ولم يدر كال ما الذى يجذبه إلى هذا الجو .. أهى الحيوانيه الظاهرة فى الرجل الذى قام وتبول ، أم فى مظاهر الفص البائس الذليل الذى لا يريد ان يتكلم ويجلس كالكلب الأجرب .

وسأل كال عن الكلبة ليزا .

لم يتكلم الفص فى البداية ، تلفت حوله فى خوف وهلع . . ثم قال

وكأنه يخطب فى جمهرة من الشحاذين : قتلوها . . أو كادوا ان يقتلوها ليسرقوا عدة جنيهات كانت تخبئها فى صـــدرها . . لو ماتت الآن، لاحترت فى دفنها . .

.. الطبيب قال أنها ستموت ، ولكنها لم تمت ، أشعر بحسرة شديدة وأنا أراها ملقاة لاحول لها ولاقوة . . انها هى التى كانت تؤكلنى وتعيشنى وتلبسنى هذه الهدمة التى تراها على الآن . .

.. دلنى ياصديق على حبيب واحد، على صديق واحد . . .

.. أصبحت مفلسا تماما . . الدواء أخذ كل ما أملك ، حتى الخمسة جنيهات التى رفضت أن تأخذها، أخذها الدواء والطبيب . .

.. جاءت بنتاها المتزوجتان ، ولم تبقيا عندها سوى دقائق ، لم تعودا بعد ذلك بالرغم من الحاح ورجاء الجارات . . هل هذا عالم الأم والبنات ، هل تصدق أن هاتين البنتين جاءتا مـــن رحم هذه الأم ؟

الأم ملقاة ذليلة مهانة لاتدرى بنفسها ، يحركها جارات فى قلبهن لمسة حنان ولكن لاتوجد عند احداهن كسرة خبز إضافية .. إنهن أفقر منى . (وكاد يقول وأفقر منك) ولكنه تلعثم لكمال البلابيسى ، وبرقت عيناه فجأة ، وكأن كل الخير والعجين الذى شربه أو التهمه ضاع مفعوله فجأة . . وتحول إلى رجل يصرخ ، أو كلب يعوى . . أمسك كمال من قميصه وقال :

ـــ أنت الذى تستطيع أن تساعدنى . . أنت أغنى أغنياء الحى .

أريد أن أنفصل هذه المنكوبة التي لا تموت إلى المستشفى ، تعود إلى حيه أو تذهب إلى القبر . . لم أعد أستطيع أن أراها ، أخاف أن أنام معها في حجرة واحدة مغلقة .

أخاف من رؤيتها ، الذباب يحوم حولها ، الديدان تنهش مؤخرتها .

وبكى بكاءا مرا . . لقد نظر كل المخمورين والعاجزين عن الحركة والمدى الأصم .

وقال كمال :

ولكنك تعلم تماما ، انى لا أملك شيئا ، وأن أبى يرفض تماما أن يعطينى شيئا ، إنه يتجاهلنى ، يحتقرنى ، هل تعلم أم لا تعلم ..؟

انه سيزوج أخى الأصغر بعد أيام قليلة . . ويرفض حتى مناقشة زواجى . .

وأجاب القص بغضب :

ـــ كذب . . هذا كذب ، لا يمكن أن يبخل عليك . . اسأله . . أو لا تسأله . . إسرقه . . كما سرقت من أجل ان تدخل شريكا لجابر تاجر الحشيش ..

لا تترك أحد أصدقائك . . أولاد منطقتك ، لا تترك الأم حتى يأكلها الدود وهى لا تتحرك من مكانها على الأرض ، لا تستطيع حتى أن تبعد الذباب عنها ..

الجارات سيتأففن منها بعض الوقت .. ياليتها تموت .. فيسترها التراب .

ـــ لاتقتلنـــا ..

وأمسكه من قميصـــه مرة أخرى . وشعر كمال بالذعـــر لأول مرة فى حيـــاته ، ترك المكان على الفـــور ، العجين المخمر حول القفص يتصرف بجنون .. الرجال الدواجين يجلسون فى صفوف على الحصير وراء بعضهم ، يشربون فى تبلد غريب ، يأكلون الفول النابت والجرجير ، يرمون القشور فى وجوه بعضهم .

رجل اسود آخر ، يدير عصا طويلة فى قدرة عجين مغطاة بغطاء من الخيش ، كأنها حلة الأموات ، يقلبون فيها عظامهم ولعابهم وأسنانهم وجلودهم ، ثم يصفقون عليها لتصبح شرابا مخيفا ، يقتل الأحياء ..

وأمسك بأحد عواميد المدخل ، وتقيأ كل ماشرب مرة واحدة ثم خرج إلى الهواء ليجد القفص أمامه متحديا متنمرا ..

ـــ أريدك أن تساعدنى .. لاتقتلنا كما تقتل الكلاب المسعورة

* * *

دخل كال المصنع ، ووراءه خليل الفص .. منذ شهور لم يدخل المصنع ، حيا صانع الشاى الذى لا يبيع ما يصنعه إلا لعمال المصنع فقط . صافح عم فكرى الكاتب العجوز بحرارة ، ودخل إلى حجرة التليفون ، وأمسك بجريدة الصباح ، أجلس الفص بجانبه وعيناه تبحثان عن درج المال الذى لم يكن مقفولا عندما دخلوا . . وجاء أخوه الأصغر يحييه باحترام زائف ، يرحب بهما ، يرحب بالأخ الأكبر والصديق الصدوق ، لا يستطيع سوى النفاق ، هكذا علمه الأب العظيم ، لم يكن الأب موجوداً . . لقد حسبا حساب كل شيء .

الأب يصلى الجمعة الآن فى الحسين ، هذه عادته منذ سنين ، يصلى مع الناس ، ثم يسرق ، يزنى ، يرتشى ، ويصبح عظيما جبارا منافقا .. هكذا علم ابنه الحبيب .

ولحسن الحظ ، ولترتيب الأشياء التى تأتى بسهولة ، تصل عربة بضاعة ضخمة وادمة لتأخذ المنسوجات التى تم نسجها ، لتنقلها إلى مصبغة العقاد لتصبغ ، ولتغتنى أكبر عائلات الحى . وتأتى العربات الفارهة والمخدرات الغالية الغير مغشوشة والفتيات البكر . .

وترك عم فكرى درج المال ، وفى نفس الدقيقة تم نشل المبالغ القليل الموجود . . ودخل كال والفص المصنع ، يتفرجان على

الماكينات الجديدة التى اشتراها الآب لزيد تعاطفه مع الابن الذى يحبه ويحترمه ويخافه .

هذه ماكينة التشليل الجديدة وهذه ماكينة لشريط ، يقول الأولاد فى حماس ، يشرح الأخ الأصغر السعيد بشبابه وزواجه بعد أيام من ابنة أغنى أغنياء دولة النحاس ، ستقام الحفلات سبعة أيام ، ستعلق الزينات من بداية باب الفتوح حتى قوس القاضى - يسخر كمال ، ولا يدرى أن العيون تلاحظه بشدة وأن الآذان تنصت لتهكمه . . سبعة أيام رائعة ، سترسل غدا الكروت المغطاة بالذهب واللون الوردى ، ستتصاعد التهاليل والزغاريد ، وسيظهر أكثر المغنيين خلاعة ، سترقص أعظم الراقصات ، ويأتى الجمع العظيم ، كل سيعطى ، وسيأخذ ابتسامة حلوة ، وينتشر الابتسام وتخفى الجيوب . .

وشعر الفص بأنهما يجب أن يتحركا قبل اكتشاف السر ، وأن كمال تكلم أكثر من اللازم ، فلكزه فى جانبه ، يشعره بأنه يتكلم كثيرا ، وأن هذا الكلام محسوب عليه ، خصوصا أنهم بعد قليل سيكتشفون السرقة ، وقد تتجه اليهما العيون ، وخاصة أن كمال لم يدخل المصنع منذ شهور . . وأن الفص معروف بسيرته السيئة فى كل المنطقة .

يجب أن يغادرا المكان قبل أن « تسمر » العيون عليهما الأبواب ، ويصبحان فريسة للاتهام والسخرية . . يجب أن يتحركا قبل نهاية الصلاة ، يجب وإلا أصبحا حقيرين مدهوسين .

قال كال بمجرد خروجهما . أريد أن أتنفس الهواء . . أشعر بدبيب حار فى جسدى ، أريد أن أتمتع بهذا المال ، أن أستعيد به جزءا من شبابى . أريد فراشا وامرأة أعتصرها . أدوسها حتى تصرخ من الآلام وتشعرنى بالعظمة والجبروت . .

- لا توجد سوى زينات الراقصة . وزوجة القواد العظيم نادر أبو شليب . إنها الوحيدة التى ستخمد النار التى تتحرك فى جسدى . أريد أن أتقيأ الحرارة . ولا يوجد منفذ إلا جسدها . . أريد أن اقتسم المبلغ نصفه لك . لأمك المسكينة التى ستنقلها اليـــوم إلى المستشفى . ويعلم الله متى ستعود إلى التراب .

والنصف الثانى لجسدى الأسمر المتشوق للبياض والطراوة ... هل توافق ياعزيزى؟.

ويفترق الصديقان . .

أحدهما يفكر فى أن يأتى الليل ليخرج نادر أبو شليب كعادته ليجلس على المقهى يشرب حجرا أو حجرين على حساب أحد الأعيان وذلك قبل ذهابه للعب على الطبلة فى ملهى السبع ورقات . .

والآخر يفكر فى تأجير عربة لتنقل الأم المسكينة إلى المستشفى، ليرحم الجيران ويرحم نفسه من مشاهدتها كل يوم . ولكى يقضى على الديدان الناهشة فى جسد العجوز الراقدة والذباب اللاصق بوجهها وفمها .

* * *

شرب كمال عدة خمسينات من الروم قبل أن يجلس فى المقهى ، ينتظر خروج نادر أبو شليب . سيصعد الدرج إلى حجرة زينات ليزاول مهمته ويعطيها فى هذه المرة نقودا كثيرة .. نقودا مسروقة من الأب العظيم الجبار ، سيخلع عليها الجبروت ويستمتع بهذا الجسد الطرى الذى سيكون هو أول رجل يذوقه فى هذه الليلة ...

وتأخر غياب نادر أبو شليب فى اللوكاندة ... ومرت الدقائق ببطء وتوتر ، والليل السخيف لا يريد أن ينتهى ، ولا يريد أن يأتى بأبو شليب إلى المقهى ، ليسخر منه ، ثم يختفى عن أنظاره ، وقد يعطيه قطعة مخدر ليشغله بها ، ألا يعلم أن زوجته يصعد اليها كثير من المشترين المبكرين ؟ إذا لم يعرف ... فهو يخدع نفسه .

والوقت يبطىء فى التحرك ، والقص لم يأت بعد ليخبره ماذا فعل بالنقود ، وبالنصف الذى أخذه من ماله أو مال أبيه ... لم يأت بعد ، ربما ذهب إلى صديقته الخادمة التى تعمل فى بيت السفير فى شارع قصر النيل ، والتى أصبح يكثر من التردد عليها بحجة أنه أخوها الذى يشتغل فى الأماكن البعيدة .

ولما تأخر هذا الجواب ، ولما زاد انشغاله ، ولما وجد شفتيه على وشك أن تتجمدا فى مكانهما من تأثير الشراب أحس أن حزاما عريضاً

يعد صدغه ، وأن عينيه تشعان بـــبريق حيواني شهواني لا يستطيع الفكاك منـــه

يدخل من البوابة ، حيا بواب الاركاندة ، وأعطاه مافيمتة علبة سجاير كبيرة ، وصعد الدرجات بسهولة ، بجرأة حقيقية . دق على الباب ، لينفرج ويرى الساقين والصدر المترجرج المتقدم لزينات ، ولا تدهش زينات لرؤيته ، وتقول له أن نادر موجود بالداخل ، يحك ذقنه ، هل يريده .؟

وتقول لها بثبات انه يريدها هي . . بحذافيرها ..

ويقول له : انتظر لحظة ، انه على وشك الخروج .

ويقول كمال متحسرا وهو يخبط على جيبه الأيسر ، أن معه مالا .. سيستطيع أن يشترى به عشاءا لها وله ، قبل أن تذهب إلى الزبائن العديدين الذين ينتظرون في الملهى ، وانه متشوق أن يفعل مرة ومرتين أو أكثر إذا سمح وقتها . وأن هذه الليلة ستكون ملكه . .

وتبتسم المرأة وتقول : . . انتظر لحظات قليلة ، سيخرج نادر وتدخل أنت ، مرحبا بك في كل وقت ، لقد انتظرتك منذ أمد طويل إنى احترق شوقا لك ، لك نكهة رائعة حرام ان تذهب بعيدا عنى .

ولا ينزل كمال الدرجات ، وانمـــا يصعد إلى اعلى ويبـــتى في السطح ..

لحظات . . دقائق بطيئة ، سيجارة تحترق ودخان يتحول إلى دوائر غريبة التكوين انساه لهن اجسام عجيبة

وقبل نهاية السيجارة ، يرى العقب ، وينزل الدرجات متحديا ، ليدق على بابها ، ولينفعل كل الجيران ولتتصاعد كل الأحاديث ، لن يهتم بعد الآن ، إنه منتعش ومعه المال، الا يكفى هذا ليملك هذا العالم الخاص ؟ العالم الصعب المدنس المتعب فى إرضائه ؟..

ويدق على الباب فى تردد،وتفتح زينات ، لقد خرج أبو شايب إذن

ويدخل كال .. وتبدأ المغامرة الشقية الرائعة ، سيدة عظيمة بلا شك ، تستغل مؤهلاتها فى العطاء ، تعطى ، تكذب ، تخادع ولكنها قادرة . . .

أحب القادرات ، أحب الآلهة ، من هذا الجسد جاء الخالق العظيم الكاذب الأحمق المفترى عليه فى أغلب الأحيان..

— أحبك للحظات .. ألا تحبنى .

وتروى له زينات حكاية عجيبة وهى تستحم بالماء الساخن ، وهو يدخن سيجارة فى هدوء المنتصر..

— ألا تعلم أنى سأرقص الخميس القادم فى فرح حبيبتك «أحلام»؟

ولا يصدق كال ..

هذه هى الحقيقة التى تجهلها .. لقد اتفقوا معها أول أمس .. ستتزوج الرجل الكبير صاحب دكان غذاء الطيور .

إذن لقد رجعت له .. كذب عليك أخوها الأكبر ، ضحكوا عليك ، حاولوا استمالتى ، لقد حاولوا أن يأخذونى إلى حضنهم ، أن

يسير اليهم بالأقدام ابن البلبيسى ، ولكن دون أن يهجروا أو يخسروا الرجل الكبير العجوز صاحب الدكان .

لقد كانوا يحاولون أن يلعبوا بجميع الأوراق ، لم يخسروا ورقة واحدة ، لقد كنت ضحية أكذوبة ، لقد كنت غبيا شديد الغباء ، كنت أثور على أمى ، سرقت أبى وأنا أشعر بأنى أرد له الدين . . دين عذابى الشديد على يديه . .

وقال كال : ولكن ، ألن ترقصى فى فرح أخى العظيم . ؟

قالت ببرود ، وهى تجفف جسدها أمامه بعد أن خمدت الفتنه ، وهو لا يريدها أن اشتعل مرة أخرى، فالوقت ضيق . .

— زوجى نزل منذ دقائق ليتفق مع البلبيسى على أجرة أحياء الليلة العظيمة..ستكون ليلة تحسب بالشهور ، ليلة من ليالى ألف ليلة، سيتحدث عنها الحى بأكمله ، سيرقص فيها كل المشهورين ، ولاأستطيع التخلف أبداً . .

وتقترب منه ، تمسح بجسدها العارى المجفف تضاريس وجهه ..
ويبتعد كال فى قرف :

— هل حقيقة ، أنك سترقصين فى ليلة واحدة فى فرح أخى ، وفرح أحلام ؟ ..

— ولم لا ؟ .. هل تسكره النقود ؟. حقيقة ، لم تعطنى بعد أجرتى .. ألم أكن رائعه معك الليلة . ؟

ألم تعلم بعد بان الحى بأكله يتحدث عن السرقة التى حدثت

فى مصنع البلبيسى ساعة الصــــلاة ؟ الرجل كان يصلى الجمعة ، ودخل اللصوص ساعة الآذان ، يقـولون كان فى درج المال ألف جنية قيمة تحصيل بضاعة كانت متحركة إلى المصابغ ، كل الحى يتحدث بذلك . ولكنك مندهش . .

وكاد كمال أن ينطق ويقول : لم يكن هناك أكثر من ثلاثين جنيها ، ولـــكنه لم يتكلم وزينات تعبث بجيوبه ، تطالب حقهـــا ، وثمن متعتـــه . .

— لتعطنى أجرتى مضاعفة ، إنى أعرف كل شىء . والليلة رائعة وغالية . لقـد أعطيتك نفسى مرتين . وهذا نادرا ما أفعله فى بداية الليل . وفى بداية العرض والطلب .. ولكن لابن البلبيسى كل شىء يهـــون .

ويقع كمال فى المصيدة . يعطيها الجزء الأكبر ويخرج متسولا حقـيراً . . ينزل الدرجات مهـدودا من تأثير ممارسة الجنس ومن الخبر..لقد كان الأخ الأكبر يلعب به إذن.لم يدعك الخطبة كما زعم.وإنما لعب على الوترين فى آن واحـد . والوتر الحساس هو الذى تغلب... وأحلام . ما رأيها فى ذلك . . ؟

وطاش صوابه وتبددت أحلامه عندما ظهر كذبها واضحا . .

وعندما وجد الشارع أمامه .. تصاعد الدم إلى رأسه فقد وجد أباه جالسا مع نادر ابو شايب فى مواجهة مدخل الوكاندة .. حقيرة هذه الوكاندة ..

صرخ عليه الوالد قائلا: ماذا كنت تفعل فى هذه اللوكاندة يا خامر يا حقير ؟.. لقد كنت فى المصنع ساعة الصلاة . كنت تزور من فى اللوكاندة ؟ هل لك أصدقاء يسكنون هنا ؟

ولم يستطع كمال الإجابة ..

وصاح الأب بعنف شديد وصراخ جبار سمعه كل ساكنى المنطقة :

— لقد سرقت اليوم . ألم تعلم . سرقنى وغدان . لقد علمت وكنت أستطيع أن أدخلهما السجن . ولكننى أشفقت على نفسى .

ثم قال :

— لا تدخل بيتى يا ولد بعد الآن .. أنت تبعثر أموالى على نساء الليل .

غادر أبو شليب يجلس مكانه يشرب الشاى فى تؤدة يدخن البورى . معه ورقة وقلم للاتفاق على حساب الفرح . وكأن الحديث لا يعنيه وليس موجها إلى زوجته . كل الذى يعنيه فى هذه اللحظة . الأرقام والعدد الذى يستطيع إحضاره من المغنين والراقصين والمهرجين ..

وقال البلبيسى : لا تدخل البيت ياولد . منزلك هو الأرصفة الان .. إنى ألعنك دوما .. وأحتقرك دوما .. إنك جئت من دم فاسد .

وكاد كمال أن يقول : وأمى . وحجرتى وملابسى . وإخوتى .. ولكنه لم ينطق بحرف واحـــد . خاف الفضيحة وخاف الألم الذى قد يسببه للام المسكينة المعذبة الحمقاء الولهانة .. وحتى لا يشمت بهما الشامتون . ابتعد تماما عن اللوكاندة وعن الحى . ضاربا الطريق إلى باب الفتوح إلى ملجئة الوحيد ... خليل الفص .

(١٦)

الأقر الجبار أصبح أطلالا ، وجدوا تحت جزء منه بلاطا مربعا قديما ، بداخله طوب رفيع السمك ، وطينا رطبا ودبشا .

ومات رجلان ، وقتل آخران . . وصمت . . ولم يحدث شيء سوى انه أصبح أطلالا . لم يتم الهدم بالكامل ، عمود مسنود بعروق خشبية وجبس ، عمدا شوهوا جبهته ، عمدا شوهوا رأسه ، ولكنه لم يهدم بالكامل .

خافوا من استمرار عملية الهدم . . الرجال تموت فى مجموعات .

وجدوا آنية تحت جزء من الهدم ، سرقها اثنان ، موجودان الآن فى قسم الجمالية ، ليس فقط اثنان ولكنهم أصبحوا عشرة بين محرض وسارق . .

ومازالت القبة موجودة ، ولكن المدخل هدم ، والصلاة امتنعت ، والاولاد الصغار لم يعودوا يجدوا مكانا للمذاكرة والحفظ والفهم . . وهكذا أصبح العظيم أطلالا ، ولم يهدم بالكامل ، ولم يبنى مكانه دار للاجتماعات ولا مساكن للغلابه والمساكين .

توقف الهدم ، وتوقفت الحياة . . إلا من قطرات من السماء ترطب التراب ، وترطب الحجارة وتسقيها مر العذاب والشك فى الإنسان .



— لا تبك يا بسيمه .. كلنا سنموت ، وندفن تحت التراب .

تركوا الحصر . تركوا المحراب . تركوا أيضاً العشب الذي ينمو فوق السقف . تركوه خوفاً . لا يستطيع أحد دخول الصرح المهزوم سوى الخفافيش والغربان .

— ابني لم يعد بعد . من يوم اغتيال الاقرع وهو غائب . أسبوع يا ولدي لم أره فيه ، سألت عمه . وبخني على قلة حيلتي وعدم تربيتي الحسنة له . أضاف : ألم أقل لك أن تسندي إلى تربيتي له في مقابل جنيه كل شهر . ؟

ولم أقل شيئاً .. ليتني مت قبل غياب ولدي .

وجدوا مواسير فخار بجوار مكان الهدم تؤدي إلى البئر القديم . بئر العبد . . يقولون أنهم يسمعون أصوات متحشرجة تتصاعد من البئر في الليل الغامق .

— اين أنت يا ابني؟ .. هل أكلت ؟ هل تعشيت ؟ أين قضيت ليلتك ؟.. هل قتلوك ؟.. هل أخذك أحد قطاع الطرق ؟..

وضعوا الأحجار في رصات ، وأشمعوا النوافذ في جانب بعد أن رقموها بالسلاقون .

— ابني .. الم ير أحد ابني؟ .. لم يتأخر كال في السؤال عنه . وفتوح الحقير . لم يرض أن يركبني عربته . قال لي : هل معك أجرة المشوار . .

لقد أصبحت قبيحة متسخة ضائعة . الم أكن بسيمه الضاحكة

المهزار المرحـــة ؟

الابواب وتقاسيمها والمقابض الخشبيه . الأوراق والنباتات المحفورة، دهست واختلطت بالتراب . توقف الهدم . وتوقفت إزالة الاتربة . هناك إشاعة تسرى فى المنطقه . من يهدم حجرا فى الأقصر يقتل فى نفس الليلة قبل طلوع الفجر .

قال كال لبسيمه وهو يرى آثار الشقاء على وجهها :

ـــ لم لا تذهبين إلى الربع ، تنامين قليلا ؟ وجهك شاحب .

وتساندت بسيمه على كال وخليل الفص الذى أصبح لايفترق عن كال منذ أن طرده أبوه . حتى أوصلوها إلى حجرتها فى الربع . . ثم تحركا إلى المدينة .

كان معهما أيضا فؤاد حراز الذى اعتذر بدروسه وتركهما عند تقاطع أحد الشوارع القريبة من منزله .

• •

قال كال لخليل وهما يعبران أحد شوارع المدينة :

هل تعلم أنى أريد أن أبصق حياتى الماضية . وأن أبدأ حياة جديدة؟

وضحك الفص فى سخرية :

ـــ كيف تبدأ . ؟ إنى أفكر جديا فى أن أسرق بيت السفير الذى

تشتغل فيه صديقتي العرجاء قليلة الحيلة . إننا نستطيع أن نعيش أياماً رغيدة بعد هذه السرقة . نستطيع أن نأكل جيدا . أن نقتني المخدرات . وأن تذهب أنت إلى زينات وأن تروي جسدك الفتي ..

— ولكني أخاف التجربة .

— مم تخاف .. اننا سنتفق مع فتوح الجشع على أن ينتظرنا في أحد الشوارع الجانبية ثم يتم توزيع المسروقات بسهولة شديدة . .

— اترك لي التدبير ، وسيحدث الشيء العظيم ..

وصمت كال .. أخذ يتسلى بالفرجة على الشوارع المزدحمة بالساهرين والساهرات .

— أريد أن أتقيأ . ولكن رقبتي أو معدتي لا تساعدني . أسبوع ولا أرى أمي . ولا أرى حجرتي . أبي يرفض دخولي المنزل .. ماذا فعلت لأستحق كل هذا الغضب .. أخي سيتزوج غدا . حبيبتي السابقة ستتزوج غدا . لقد كذبت علي . كتبت لي خطابا بحبر باهت . . لم تطلى علي الحيله . أو انطلت علي .. المهم أنها ستتزوج ولن تنتحر . ولن تقتل نفسها كما قالت لي . .

انهن كاذبات دوما ، انهن أحق منـــا بالعيش ، انهن ماهرات يعرفن المستقبل جيدا ..

ما هو مستقبلي .. ضياع ووحشة .. لقد حددت نفسي ، هذا هو طريقي .

انني أوافق .. إننا نذهب معا لنسرق .. أنا في انتظار مشورتك وآرائك السديدة ...

وقال القس فى حده :

ـــ غدا ستذهب العائلة إلى السينما فى حفل الماتينيه.. غدا ستكون فرصتنا العظيمة .. لن تنـــدم وأنت معى .. لن تندم أبدا .. ستجد الرخاء والمقدرة ، ستجد الضوء الباهر .

وقال كال :

ـــ سأجد الرغد ، سأجد النهاية . سأجد الراحة الأبدية ..

ولم يكن هناك حديث جديد للصديقين الذين جمع بينهما السأم من الحياة ومن ثم عادا من المدينة ذات الشوارع المقممة . والنساء البراقات . . عادا الى كفر الوغارى . إلى الحجرة المحدودة حيث ينامان . ويقضيان أيامهما فى الحجرة ذات الفرشتين. فرشة الأم الغائبة وفرشة الابن .

تغوص أقدامه فى البساط الأخضر ، فؤاد بجواره ، يدخلان بعد الغروب ساحة جامع الحسين ، يودعه أو يطلب مشورته . .

ثريات الكهرباء فوقهما مباشرة . لو سقطت أحداها فوق رأسه لأراحته من مشواره الجهنمى أو مغامرته القادمه الخابية بلون الفضة الكابية .

رجل عجوز يبيع الكتب القديمة . دوائر من الرجال يلبسون جلاليب بيضاء . يغنون . يرتلون . يغنون النبى . ويبتهلون إلى الله بصوت غير مفهوم .

فؤاد حراز يتركه . ويلبس جلبابا أبيض وطاقية بيضاء . يغنى مثلهم بصوت متحشرج . يكور نفسه . يدحرج رأسه ، يتثنى ويترجرج مثلهم . يصبح بلوظة متحركة رائعة غبية تلبس البياض وطاقية لها لسان أخضر . .

جمل مقتحم يسأل كال :

لماذا لاتشترك معهم . تدخل فى الصفوف . تفعل مثلهم ؟

ولايرد كال . يكور فمه . ويتحرك إلى الخارج .

الهواء بارد كئيب . رائحة عطر الحسين والسيدة فى خياشيمه . خليل النص : ينتظاره عند محطة الأزهر . بجانبه فتوح فى تاكسيه و . ينتظران .

لم يودع فؤاد قبل خروجه من الجامع . لن يغضب فؤاد منه، إنه أطيب منه قلبا وأرق وأحلم . تنظر له عيون فتوح وخليل . . يفكر فى الرجال الذين يغنون للنبى وهم جالسون . . هل يعود اليهم ويغنى بصوت أجش يصيبه بالصداع . ؟

وركب التاكسى بجانب فتوح .. أقدام المسلمين الداعين بالبركة تتحرك أمامه فى الطريق . حتى انه قال لفتوح أكثر من مرة . . حاسب .. الأقدام تلبس جوارب ولا تتحرك .. وانما تتحرك الأجسام فوقها .

عند عمارة بشارع قصر النيل . نزلوا جميعا من التاكسى . ثم ركب ثانية فتوح بعد همس قصير مع خليل الفص ..

المصعد يصعد برفق وسط حركات الصاعدين . رجل له ذقن مثلثة يوزع الفطير . أكل اثنة مناصفة مع زميله . كان لها طعم رائع ومذاق ساخن يتلاءم مع نفسه .

خليل يدق الجرس . باب الشقة له بنورة سحرية ورقم من المعدن اللامع . تفتح الفتاة أو خادمة البيت . ترحب بخليل . تستغرب وجود كمال . . لاتمتنع عن الاستقبال . يدخل خليل الفص وراءه كمال فى خجل .

المنزل ضخم .. الصالة أربع صالات وأربع انواع من المفروشات ألوان هادئة . أجساد ضخمة ظاهرة فى اللوحات على الحوائط . وفى التماثيل أمام الجدران .. وساعات تتدلى على الحوائط . وتحف منثورة على التضد .

الفتاة فرحة .. كأن البيت بيتها . أضاءت الأربع صالات .. طرقة على اليمين ، لها باب لونه أحمر ، كراسى مبطنة بالجلد ، بار على اليسار ضيق له درابزين من المعدن ، وعدة زجاجات شراب تطل . ولكنها فارغة ، تزين الصالة فقط .

الفتاة تقول : انهم يخبئون الزجاجات الممتلئة ، سيعودون بعد ساعة . تتبادل مع خليل الابتسامات .. كال يفكر .. هل يمكن أن يصبح خليل محبوبا من جنس النساء .. ؟

الفتاة بها عرج خفيف ، وجهها ممصوص ، ليس قبيحا ولكنه يلوح عليه الغباء ، السمرة فى الوجه والبلادة فى العيون تؤكدان الغباء المستتر . . .

وفجأة يصبحان أمام المرقة .. الفتاة أصبحت فى دنيا أخرى ، ملقاة على الكنبة ، بعد أن خدرها خليل بمنديل صغير كان يحمله ، تصورت الفتاة أنه يلعب معها لعبة غريبة ، وأنطلت عليها حيلة قديمة ..

كال وخليل يبحثان فى الشقة ، فى غرف النـــوم ، الوقت قليل ، والطمع كثير ، والجشع فى عيون خليل الفص .

الخوف والكره والحقد والقتل والضياع فى عيون كال ..

الفتاة لم تستسلم للمخدر بسهولة .. انها تتحرك .. كال يفاجئها بخبطة على رأسها بطفطوقة معدنية .. قبل أن تقول : ماذا تفعلان ؟ .. عيناها يظهر عليهما الذعر . . دم قليل . . قطرات من الدم تنزل عند حافة شفتى الفتاة .

الساعة تدق التاسعة .. الساعة غريبة كريهة ، وقت الخروج من المانيكية . . يجب الإسراع . . خليل فى حيرة .. ماذا يأخذ وماذا يـــترك ...

كال يقول : الفتاة لا تتنفس ، خليل يكاد ينسى نفسه . ويتخانق بصوت عال . لماذا الكلام . لماذا لا تحشو جيوبك .

لم يعرفا كيف يفتحان دولاب المانم حيث تحتفظ بجوهراتها .. هكذا عرف وفهم خليل من الفتاة .

كال يتذكر المصلين وهم يخلعون الجلاليب البيضاء، والرجل المنشد يعلو صوته، لا تخلعوا الجلاليب إلا بعد وصلة الانشاد ، السجاجيد خضراء، والرجال نائمون.. نائمون ، عواجيز يصلون، شبان يرقصون ويترجرجون . لا يفسرون . ولا يفهمون..

يتحركون ببطء ، يكفيهم أنهم وسط الجموع . .

تتناثر الكلمات من فم خليل الفص : يجب الاسراع .

كال يحشو جيوبه بكل ما يستطيع أن يأخذه من الصالات الواسعة .. الوقت أزف .. يجب الخروج فوراً . .

يبحثان عن باب الخروج . الحمد لله «عنيفة» والصلاة «عنيفة»

كال يكاد يسقط أثناء خروجهما .. يقـــول : انظر للفتاة .. خليل لا يرد عليه .

كال يقول : الفتاة ماتت ..

الذعر فى العيون ، الخوف من الدقائق ، السرعة . الوقت يضيع . . يخافان أن ينتظرا المصعد .

السلالم أحسن .

يخافان أن يراهما البواب ، هل يرجعان إلى الشقة . . وينزلان من سلالم الخدم ، ولكن من يفتح الشقة ، والفتاة تنزف دما . . الصدغ تهتك تحت تأثير الضربة . .

كال لايشعر بالندم ولا بالخوف . الحياة تحركه ، القطيع أقوى من الفرد أقوى من الرؤيا . . ماتت الرؤيا كلها ، ماتت الأكاذيب والخيال والوضوح . . فليحيا الساقطون والمجرمون والمحتالون والقطيع . .

يركبون التاكسى . . الأنوار الصفراء تعمى العيون . . لعنة الله على من وضعها .

يقبلون الأيادى بعد الصلاة . . كل واحد يقبل يده ولكن بحركة متبادلة مضحكة . . هل مازال فؤاد حراز ينتظر عودته .

خليل واهم ، لايستطيع أن يتـــكلم ، لايستطيع أن يقول أو يحكى لفتوح عن الذى حدث منذ دقائق .

لقد قتلنا وسرقنا أشياء حقيرة . . لم أقتل الفتاة . قتلها هذا المجنون الأحمق الغضوب دائما . الذى يخافه الأصدقاء ويخافون عليه .

الشارع ضيق . . الحارة مظلمة . . القمر نصفه الأعلى تعرض للقصف والضياع . . لم يبق سوى نصفه الأسفل وأكوام من الدبش والتراب .

فى هذه اللحظات . يقفلون أبواب الجوامع .. يطفئون الانوار ..
يصفقون بالايادى حتى يخرج الناس الكسالى النائمون فى استهتار على
سجاجيد الحسين الخضراء .

المنطقة مظلمه تماما، مخيفة، مقفلة الابواب وبالترابيس .

يتكاثر الشحاذون والمساكين والافاقون .

يتشاجر الوبالون بجانب قبة الجامع القديم وينزل على القلوب
الحزن والألم والقهر .

ــ ونفترق الآن . .

لايتكلم أحـــد .

• • •

كتابات معاصرة

ص . ب ١٣٦١ القاهرة

صدر منها

		قرش
● قصص قصيرة	المجموعة الأولى	٢٠
● أبطال بلدنا	يعقوب الشاروني	١٢
● كل الساقطين	صموئيل بيكيت	١٥
● قصص قصيرة	المجموعة الثانية	٢٥
● الأصدقاء والفتى الشجاع	د . نعيم عطية	١٠
● رغبة سرية	عزت الأمير	٢٠
● الليلة الأخيرة	قصص ألمانية مترجمة	١٥
● دموع من الدم	إبراهيم البعثي	١٠
● مسرحيات فصل واحد	الجزء الأول	١٥
● سكر مر	محمود عوض عبد العال	٢٠
● حمام الملاطيلي	اسماعيل ولي الدين	١٥
● الفنان صلاح عبد الكريم	صبحي الشاروني	٢٥
● نصف مليون دقيقة في أستراليا	صلاح طنطاوي	١٥
● تحت السلم	إبراهيم البعثي	١٥
● الخوف والشجاعة	يوسف الشاروني	١٥
● مسرحيات فصل واحد	الجزء الثاني	١٥
● تلك الرائحة (طبعة ثانية)	صنع الله إبراهيم	٢٥
● وانتظل إلى الأبد أصدقاء	إقبال بركة	١٥
● الجدران	محمد الحديدي	٢٠
● الأقمر	اسماعيل ولي الدين	١٥

كتابات معاصرة
ص . ب ١٣٦١ القاهرة
تليفون ٨٩٧٦٤١

ص
١٠